قادة الفكر

تأليف

الدكتور طه حسين

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

مصر ١٩٢٥

قادة الفكر

تأليف

الدكتور طه حسين

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

مصر ١٩٢٥

قادة الفكر

هوميروس



هوميروس

ارادت مجلة «الهلال» الغراء أن تكون صلة بيني وبين قرائها في نشر طائفة من الفصول هي التي اقترحت موضوعها ، فمن الحق أن ابدأ هذه الفصول بان أقدم الى «الهلال» اجمل الشكر لما تفضلت به من ايجاد الصلة بيني وبين قرائها ولما وفقت اليه من اقتراح هذا الموضوع الذي قد يكون عسيراً أشد العسر ولكنه نافع أعظم النفع فمهما يتكلف الكاتب من العناء في البحث عن دقائقه فهو واثق كل الثقة بان عناءه ليس ضائعاً وبانه واجد في هذا العناء نفسه من اللذة والفائدة ما ينسيه مشقة البحث وآلامه . ولقد أجاهد نفسي جهاداً شديداً لأمنعها عن الاسهاب في بيان ما لهذا الموضوع من نفع وخطر ، لاني اعلم ان البحث نفسه سيبين هذا النفع والخطر أحسن

بيان . وحسبنا اننا سنعرض في هـذه الفصول لا لتاريخ اشخاص بعينهم بل لتاريخ العقل الانساني وما اعترضه من ضروب التطور وألوان الاستحالة والرقي حتى انتهى الى حيث هو الآن

على اني لا اريد أن ابدأ البحث قبل أن اقدم بين يديه تنبيهاً للقراء أرى أن ليس منه بد . فقد تعوَّد الناس في الشرق عامة وفي مصر خاصة أن يفهموا من مثل هذا العنوان الذي قدمته أن عناية الكاتب والباحث ستتناول الاشخاص وتقصر عليهم ، فلفظ «قادة الفكر» اذا سمعه القارىء المصري أو الشرقي فهم منه لأول وهلة طائفة من الاشخاص لهم أثر يختلف قوة وضعفاً في تكوين الحياة الفكرية العامة في جيل من الاجيال أو في بلد من البلاد ، ثم اتصل ذهنه بهؤلاء الاشخاص وانتظر من الكاتب أن يقص عليه اطرافاً من حياتهم وما اعترضها من خطوب وما اختلف عليها من محن ، وبعبارة موجزة انتظر من الكاتب أن يقص عليه تراجم هؤلاء الاشخاص . وهـذا النوع من البحث مألوف شائع في الشرق والغرب . يحبه الناس ويكلفون به منذ كتب الكاتب اليوناني المعروف «فلوتارخوس» كتابه المشهور الذي ترجم فيه لعظماء الرجال من اليونان والرومان والذي كان له في العصر القديم وفي القرون الوسطى وفي أول هذا العصر الحديث اثر لا يكاد يعدله أثر والذي ما نزال نقرؤه الآن بلذة لا تعدلها لذة وعناية لا تشبهها عناية . هذا النحو من البحث مألوف شائع ولكني مع ذلك سأعدل عنه وسأكون شديد الاقتصاد في ذكر الحوادث والاخبار والتواريخ

التي تتصل بحياة الاشخاص الذين سأعرض لهم في هذه الفصول ، لا لاني أهمل هؤلاء الاشخاص اهمالا أو أنسى تأثيرهم العظيم في البيئة التي نشأوا فيها ، بل لان لي رأياً أظن أنه هو الرأي المقرر الآن عند الذين يعنون بتاريخ الآداب والآراء وهو أن هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أي أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة أكثر من أن تكون أثراً من آثار الفرد الذي رآها واذاعها.

واذا كان الأمر كذلك فليس من الحق في شيء أن تنسى الجماعة التي هي المؤثر الاول في ظهور الآداب والآراء الفلسفية وتقصر عنايتك على الفرد الذي كان مظهراً لهذه الآداب أو لهذه الآراء ، واحب أن نتفق قبل كل شيء . فالناس يذهبون في مثل هذا الموضوع مذهبين متباينين أشد التباين ، أريد أنا كما أراد غيري من المؤرخين المحدثين أن اتوسط بينهما وان آخذ من كل منهما خلاصته . فمن الناس من يغلو في اكبار الجماعة والبيئة واضافة كل شيء اليها واستنباط كل شيء منها حتى ينسى الفرد نسياناً تاماً فان ذكره فانما يذكره على أنه اداة من الادوات ومظهر من المظاهر ليس له قوة ولا عمل ولا ارادة . ومنهم من يغلو في اكبار الفرد فيضيف اليه كل شيء ويقصر عليه كل عناية ويفني الجماعة فيه كما يفنيه السابقون في الجماعة ، اولئك يمحون الفرد محواً وهؤلاء يمحون الجماعة محواً ، اولئك وهؤلاء مخطئون فيما اعتقد . فلست أجهل أن الفرد قوة تختلف عظماً وضآلة ولكنها قوة على كل

حال ، قوة لها أثرها في تكوين القوة الاجتماعية بل لها أثرها العظيم في تكوين هذه القوة ، واذن فليس من البحث العلمي القيم في شيء ان تعتبر هـذا الفرد مهملا كما يقولون ، ولست أجهـل أن الفرد لم ينشيء نفسه وليس من سبيل الى تصوره مستقلا ، وانما هو في وجوده المادي والمعنوي أثر اجتماعي وظاهرة من ظواهر الاجتماع ، لايوجد الا اذا التقى الجنسان فاذا وجد فالجماعة كلها متعاونة متظاهرة على تنشيئه وتربية جسمه وعقله وشعوره وعواطفه ، وهل التربية المادية والمعنوية الا قالب يصاغ فيه الفرد على صورة الجماعة التي ينشأ فيهـا . يتعلم الفرد بهذه التربية اللغة التي يتكلمها وليس هو الذي يحدث هذه اللغة وليس من الممكن أن تعرف الفرد الذي أحدث لغة من اللغات ، بل ليس من الممكن أن توجد اللغة الا اذا كانت هناك جماعة تحدثها لانها محتاجة اليها ، ثم يتعلم الفرد الدين الذي ينظم حياته الروحية وليس هو الذي أحدث هذا الدين، بل ما من سبيل الى وجود الدين اذا لم تكن هناك جماعة توجده لانها تحتاج اليه ، وقل مثل هذا في الاخلاق، وقل مثله في النظم الاجتماعية والسياسية، وقل مثله في جميع الاوضاع والآداب . الفرد اذن ظاهرة اجتماعية واذن فليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التي انشأته وكونته محواً ، أنما السبيل أن تقدر الجماعة وأن تقدر الفرد وأن تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما وفي تعيين ما لكليهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة . واذا كانت هذه هي السبيل المعقولة

فلا ينبغي أن تنتظر من هذه الفصول تراجم لقادة الفكر كما تقرأ في كتاب «بلوتارخوس» تراجم عظماء الرجال من اليونان والرومان. ولا ينبغي أن تنتظر من هذه الفصول مباحث اجتماعية أو جغرافية ندرس منها البيئات والبلدان درساً مفصلا بحجة انها هي المؤثر الاول في وجود الآراء والافكار التي خضعت لها الاجيال الانسانية. إنما هذه الفصول مزاج من البحث الفردي والاجتماعي سأجتهد ما استطعت في أن أبين فيها شخصية الفلاسفة والمفكرين الذين سأعرض لهم ولكن على أن تكون هذه الشخصية متصلة بالبيئة التي نشأت فيها متأثرة بها ومؤثرة فيها أيضاً.

***

وبأي هؤلاء المفكرين والفلاسفة تريد ان أبدأ هذه الفصول ؟ هم كثيرون ، هم أكثر من عشرة ، بل أكثر من مئة ، بل أحسب ان العد لا يكاد يحصيهم ، بل ازعم إنا نجهل منهم أفراداً كثيرين. فكم من مفكر وكم من فيلسوف كان له الاثر الاعظم في ترقية بيئته وتهيئتها للتطور ، ولكن الزمان محا شخصيته محواً واخفاها على الاجيال اخفاء فلم يعرف الناس من أمرهم قليلا ولا كثيراً ، وانما استمتعوا بآثاره وانتفعوا بآرائه وهم يجهلونه ثم قد يخطر لهم أحياناً ان يبحثوا عنه ويتلمسوا شخصيته فاذا لم يجدوا اليها سبيلا اخترعوها اختراعاً وابتكروها ابتكاراً وخلقوها من عند أنفسهم ، ولقد أريد ان أحدثك اليوم عن شخص من هؤلاء الاشخاص أو عن طائفة من هؤلاء الأشخاص ، كان لهم أعظم أثر في تكوين أمة بأسرها

وفي تصوير النظم السياسية والاجتماعية والدينية التي خضعت لها هذه الامة عصوراً طوالا وفي تهيئة هذه الامة للرقي والتطور اللذين جعلاها مصدر الحياة العقلية التي لا تزال الانسانية متأثرة بها الى اليوم والى غد والى آخر الدهر . أريد بهؤلاء الاشخاص أولئك الشعراء الذين انشأوا « الالياذة » « والاودسا » وغيرهما من الاناشيد القصصية اليونانية التي لم يبق لنا منها الا طرف قليل والتي كانت قوام الحياة اليونانية عصوراً طوالا حتى خلفتها الفلسفة، ولعلك تدهش حين تراني أحدثك عن منشىء « الالياذة » « والاودسا » ، ولعلك كنت تقدر اني سأحدثك عن فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة الذين خلد التاريخ القديم والحديث اسماءهم وآراءهم ، عن « سقراط » أو « افلاطون » أو « ديكارت » أو « جان جاك روسو » او « كانت » او « اوجوست كونت » أو « سبنسر » . سأحدثك عن هؤلاء ، ولكن بعد أن أحدثك عن « هوميروس» وخلفاء « هوميروس »

وفكر معي قليلا في تاريخ اليونان الذي ترجع اليه الحضارة الانسانية الحديثة والقديمة وفكر معي قليلا في تاريخ العرب أيضاً الذي ترجع اليه الحضارة الاسلامية من بعض الوجوه . علام كانت تقوم الحياة اليونانية في بداوة اليونان وأول عهدها بالحضارة ؟ وعلام كانت تقوم الحياة العربية في بداوة العرب وأول عهدهم بالاسلام ؟ على الشعر ! ونستطيع أن نقول على الشعر وحده . فالعرب واليونان يتشابهون من هذه الجهة تشابهاً كاملا، تستطيع أن تبحث عن فلاسفتهم

وحكمائهم وقادتهم وساستهم ومدبري أمورهم الاجتماعية أيام البداوة فلا تجد الا الشعراء . ثم تستطيع أن تبحث عن فلسفتهم ودينهم ونظمهم المختلفة وحياة عقولهم وعواطفهم فلا تجدها إلا في الشعر . الشعر اذن هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية لهاتين الامتين ؟ وتستطيع أن تقول في غير حرج أن الشعر هو أول مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية القوية لكل الامم المتحضرة التي عرفها التاريخ ، واذن فالشعراء هم قادة الفكر في هذه الامم ، تأثروا بحياتها البدوية فنشأوا ملائمين لها وتميزت شخصياتهم فاثروا فيمن حولهم ثم في الاجيال التي خلفتهم . وهل كانت توجد الحضارة اليونانية التي انشأت «سقراط» و « ارسطاطاليس» والتي انشأت «ايسكولوس» و« سوفوكليس » والتي انشأت « فيدياس » و « بيريكليس » لو لم توجد البداوة اليونانية التي سيطر عليها شعر «هوميروس» وخلفائه؟ وهل كانت توجد الحضارة الاسلامية التي ظهر فيها من ظهر من الخلفاء والعلماء وافذاذ الرجال لو لم توجد البداوة العربية التي سيطر عليها امروء القيس والنابغة والاعشى وزهير وغيرهم من هؤلاء الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم ؟ غير أن هناك فرقاً عظيما بين بداوة العرب وبداوة اليونان . بداوة العرب أثرت في العرب وفي الحضارة الاسلامية ولم تتجاوز الحضارة الاسلامية الا قليلا ، واذن فشعراء الجاهلية العربية عرب لا أكثر ولا اقل . أما بداوة اليونان فقد أثرت في اليونان واثرت في الرومان واثرت في العرب واثرت في الانسانية القديمة والمتوسطة وهي تؤثر الآن في

الانسانية الحديثة وستؤثر فيها الى ما شاء الله ، واذن فشعراء البداوة اليونانية يونان ولكنهم ملك للانسانية كلها .

ومن هؤلاء الشعراء من نسيتهم الانسانية نسياناً تاماً وعاشت بآثارهم عصوراً طوالا ثم تنبهت لجمال هذه الآثار فأخذت تبحث عن أصحابها وما تزال تبحث عنهم الى الآن دون أن تجدهم ، وأكبر الظن أنها لن تجدهم أبداً ، واذن فقد خلقتهم خلقاً وابتكرتهم ابتكاراً ، وبين أيدينا منهم صور مختلفة تختلف باختلاف الاجيال التي انشأتها ، بين أيدينا الصورة اليونانية التي اخترعها اليونان في القرن السابع قبل المسيح وفي القرون التي وليته ، والتي تمثل لنا « هوميروس » بطلا من الابطال نشأ من الزواج بين نهر من أنهار آسيا الصغرى وامرأة من عامة النساء ، وتقص علينا من أخباره أقاصيص نعجب بها ولكننا لا نستطيع أن نؤمن لها . ثم بين يدينا صورة أخرى ظهرت في أوربا في القرن الثامن عشر وصور أخرى ظهرت في أوربا في القرن التاسع عشر تمثل « هوميروس » رجلا من الرجال وتجتهد في أن تنشيء له سيرة تشبه سير الناس ، ثم بين يدينا صورة أخرى ظهرت في اوربا أوائل القرن الماضي تنكر شخص « هوميروس » وتجحده جحوداً تاماً وتزعم أن « هوميروس » هو الامة اليونانية البدوية كلها وان « الالياذة » و « الاودسا » أثران من آثار الامة اليونانية كلها . ثم بين يدينا هذه الصورة التي وقف عندها البحث الحديث إلى حين إلى يوم يظهر باحث جديد يظهر لنا صورة أخرى، وهذه الصورة التي انتهى

اليها البحث الآن تنكر شخص « هوميروس » كما روته الاساطير وتزعم أن هناك أسرة كانت تسمى أسرة « الهوميريين » توارثت الشعر القصصي فيما بينها واذاعته في البلاد اليونانيــة . ولست تريد فيما أظن أن أوغل بك في هذه المباحث المختلفة المعقدة حول شخص « هوميروس » أو أشخـاص الشعراء القصصيين الذين انشأوا « الالياذة » و « الاودسا » وغيرهما من الشعر القصصي اليوناني ، فذلك شيء لا غناء فيه الآن . وانما الذي تستطيع أن تأخـذني به هو أن أبين لك كيف كان هؤلاء الشعراء الذين نسيهم التاريخ قادة الفكر أثناء البـداوة اليونانية وأثناء عصر طويل من الحضارة اليونانية وكيف لا يزال هؤلاء الشعراء يؤثرون في الحياة الانسانية الى الآن

تصور جماعة من الناس لا يقرأون ولا يكتبون ولا يختلفون الى مدرسة ولا يستمعون الى فيلسوف ولا يطمحون في حياتهم الى أكثر من الاكل والشرب والامن والدعة . هـذه الجماعة التي تعيش هذه العيشة الخشنة تجدها في البلاد اليونانية قديماً وفي البلاد العربية قبل الاسـلام وفي بلاد أخرى لم تبلغها الحضارة اليوم . صور هـذه الجماعة وقد أقبل عليها في يوم من الايام رجل في يده اداة موسيقية تشبه الربابة فاخذ يلحن على اداته الموسيقية واجتمع الناس حوله يستمعون له وما هي الا أن أضاف الى ألحانه غناء أخذ ينشده فغنى الناس به وشجعوه واندفع هو في غنائه واذا هو يقص عليهم في لغـة عذبة ساذجة رائعة اخبار طائفة من الابطال يمثون

الثروة التي يطمحون اليها والقوة التي يعتزون بها والشجاعة والبأس وما الى ذلك من الأخلاق والخلال التي يكبرها البدو ويحرصون عليها لانها قوام حياتهم ، اندفع الشاعر في قصصه يغنيه ويلحنه وأغرق الناس في الاستماع له والاعجاب به واذا هم معلقون بشفتيه واذا هو يخلب البابهم ويستهوي عقولهم حتى اذا فرغ من قصصه وغنائه التفوا حوله يهنئونه ويكرمونه واستبقوا اليه يضيفونه ويمنحونه المنح حتى اذا قضى بينهم أياماً ينشدهم ويجيزونه تركهم وقد حفظوا عنه كثيراً وقد احيا عواطفهم وغذا عقولهم ، تركهم وانتقل الى جماعة أخرى وقد شجعه ما لقي من الجماعة الاولى فكان أمره مع الجماعة الثانية كأمره مع الجماعة الاولى ، تصور هذه الجماعات وهؤلاء الشعراء المغنين توجد لنفسك صورة مقاربة للحياة اليونانية وتأثير الشعر فيها أيام البداوة

تصور الشعراء العاميين الذين يقصون على الناس في قرى مصر أخبار الهلالية والزناتية يلحنونها على الربابة ، ولكن لا تتصور الناس الذين يستمعون لهؤلاء الشعراء متحضرين تحضر المصريين يلتمسون آدابهم وأخلاقهم ونظمهم المختلفة في الدين والعلم والفلسفة والسياسة ، وانما تصورهم قوماً ليس لهم دين منظم ولا أدب مدوّن ولا فلسفة ولا سياسة وانما الشعراء يحملون اليهم من هذا كل شيء ، تصور هذا تمثل تأثير « الالياذة » و « الاودسا » في الحياة اليونانية الاولى

ثم اضف الى هذا كله شيئاً آخر وهو أن هذه الاناشيد التي

كان يتغنى بها الشعراء على هذا النحو الذي قدمته لم تكن كأخبار الهلالية والزناتية وانما كانت تمتاز بشيء من الجمال والروعة ليس الى وصفها من سبيل ، فلم يقف تأثيرها عند هذه الجماعات البادية وانما تحضرت هذه الجماعات والتمست آدابها وفلسفتها ونظمها في مصادر أخرى غير هذه الاناشيد ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تنسى هذه الاناشيد أو تسلوها وانما أخذت تستظهرها وترويها وتحرص عليها الحرص كله وبالغت في ذلك حتى عنيت حكوماتها المنظمة بتدوينها على نحو ما عنيت حكومة الخلفاء الراشدين بتدوين القرآن الكريم

ثم لم يقف الامر عند هذا الحد وانما ظهر في هذه الامة اليونانية شعراء عدلوا عن القصص الى الغناء أو قل عدلوا عن هذا الشعر الذي يقص سير الابطال إلى شعر آخر يتغنى العواطف الانسانية المختلفة من حزن وابتهاج فلم يستطع هؤلاء الشعراء أن يستغنوا عن الشعر القصصي القديم وانما التمسوا فيه موضوعاتهم ، ولم يقف الامر عند هذا الحد وانما ظهر في هذه الامة اليونانية شعراء آخرون عدلوا عن القصص والغناء الى التمثيل في الملاعب فلم يبتكروا قصصهم ابتكاراً وانما التمسوا أكثرها في الشعر القصصي القديم ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ظهر في هذه الامة اليونانية فلاسفة ومفكرون عدلوا عن القديم كله وجددوا كل شيء ولكنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عن الشعر القصصي القديم لانه كان مستودع المثل العليا في الاخلاق والحياة الانسانية الساذجة البريئة من

الفساد فرجعوا اليه في فلسفتهم وأخلاقهم . ثم دالت الدول وتغير الزمان وكان العصر الحديث وأراد الشعراء المحدثون أن ينشئوا القصص التمثيلية والقصائد الغنائية فالتمسوا نماذجهم عند شعراء اليونان فاذا هم ينشئون قصصهم وقصائدهم على نحو ما كان يفعل اليونان متأثرين « بالالياذة » و « الاودسا » . ثم بدا لهم أن يمثلوا القصص اليونانية نفسها فترجموها إلى لغاتهم وأخذوا يمثلونها حيناً في اللغات الحديثة وحيناً في اللغة اليونانية القديمة نفسها . و « بيت موليير » الآن معني بتمثيل قصة من قصص « سوفوكليس » هي « أوديب في كولونا » اشتغل المترجم بنقلها الى الفرنسية عشرين سنة . ومن قبل ذلك اشتغل عميد « بيت موليير » بنقل قصة « الفرس » « لايسكيلوس » وتمثيلها . ومن قبل ذلك اشتهر الممثل الفرنسي النابغة « سولي » بتمثيل « أوديب ملكا » . وفوق هذا كله لا توجد مدرسة تحترم نفسها في أوربا لا يدرس فيها الشباب الاوربي « الالياذة » و « الاودسا » في نصوصها اليونانية أو مترجمة الى اللغات الحديثة

أكنت مصيباً اذن حين زعمت أن شعراء « الالياذة » و « الاودسا » يعدون بحق من قادة الفكر الانساني ؟ ولكنك ستسألني : ما « الالياذة » وما « الاودسا » ؟ ولست أجيبك على هذا السؤال وانما أريد أن تجيب نفسك عليه ، أريد أن تقرأ « الالياذة » و « الاودسا » لتعرف ما هما ؛ وكل ما أطمح اليه في هذه الفصول هو أن أشوقك إلى أن تقرأ شيئاً قليلا أو كثيراً من آثار المفكرين الذين اتخذهم موضوعاً لهذه الاحاديث

سقراط



سقراط الفيلسوف

رأيت في الفصل الماضي كيف كانت قيادة الفكر إلى الشعراء في العصور الاولى من حياة الامة اليونانيـة وغيرها من الامم التي تشبهها قليلا أو كثيراً . ورأيت كيف كان هؤلاء الشعراء يقودون الفكر في شعوبهم المختلفة ورأيت الطرق التي كانوا يسلكونها لتكوين الآراء والسيطرة على العقول . وأريد في هذا الفصل أن ابين لك في شيء من الايجاز الشديد الذي أنا مضطر اليه اضطراراً كيف انتقلت قيادة الفكر من الشعراء إلى طائفة أخرى هي طائفة الفلاسفة، وكيف استطاع هؤلاء الفلاسفة أن يقودوا الفكر ويدبروه، وماذا اتخذ هؤلاء الفلاسفة من طريق لقيادة الفكر وتدبيره . وفي الحق أن قيادة الفكر لم تنتقل من الشعراء الى الفلاسفة في يوم وليلة بل لم تنتقل اليهم في عام ولا أعوام بل لم تنتقل اليهم في عشرات

السنين وانما احتاجت الى القرون الطوال لتصبح ملك الفلاسفة بعد أن كانت ملك الشعراء

احتاجت الى القرون الطوال واحتاجت معها إلى أشياء كثيرة نستطيع أن نختصرها في هذه الكلمة الصغيرة التي تدل على معاني كثيرة لا تكاد تحصى وهي كلمة « التطور » . ذلك أنك تستطيع أن تشعر بهذا الفرق العظيم بين الشعر من جهة والفلسفة من جهة أخرى لتعلم أن ليس من السهل ولا من اليسير أن يخضع شعب من الشعوب لسلطان الشعر اليوم حتى اذا اصبح خضع لسلطان الفلسفة ، ليس ذلك سهلا ولا يسيراً بل ليس ذلك ممكناً إذا لم تتحقق شروط كثيرة تحتاج في تحققها الى عصور طوال

ما الشعر ؟ وعلى اي ملكة من ملكات النفس يعتمد ؟ وما الفلسفة وبأي ملكة من ملكات النفس تعتز ؟ أليس الشعر لوناً من ألوان التصور وضرباً من ضروب الحس والفهم أقل ما يمكن أن يوصف به أنهما يعتمدان على الخيال قبل كل شيء ، يعتمدان على الخيال فيدركان الحقائق لا كما هي بل كما يتصورانها ، ويحكمان على الحقائق لا كما ينبغي أن يحكما عليها بل كما يستطيعان أن يحكما عليها . أليس الشعر ولا سيما الشعر القصصي الذي كانت اليه قيادة الرأي في العصور الاولى مظهراً من مظاهر الطفولة الانسانية وصورة من صور الحياة الساذجة الغليظة ، واذا كان الامر كذلك فالفرق بين الشعر وبين الفلسفة عظيم . ذلك أن الفلسفة لا تعتمد على الخيال ولا تعتز به وانما هي مظهر الحياة العقلية القوية ؛ هي وسيلة

الانسان الى ان يتصور الحقائق كما هي ويحكم عليها الاحكام التي تلائم طبائعها أو قل انها الوسيلة الى أن يتصور الانسان الحقائق ويحكم عليها بعقله لا بخياله ولا بحسه ولا بشعوره . تعتمد الفلسفة على النقد ويعتمد الشعر على التصديق . ولاجل أن ينتقل الانسان من هذه الحياة التي يبهره فيها كل شيء ويستأثر به فيها كل شيء إلى حياة أخرى لا يخضع فيها لتأثير الاشياء وانما يحاول أو يعتقد أنه يحاول أن يخضع الاشياء لتأثيره وسلطانه ، اقول لاجل ان ينتقل الانسان من تلك الحياة إلى هذه الحياة لا بد له من عصور طوال تنمو فيها ملكاته وتستحيل

تصور هذه الشعوب الاولى التي كانت ترهب كل شيء وتتأثر بكل شيء وترى في كل شيء إلهاً تخافه وتتملقه وتترضاه ، ترى في الهواء الهاً وفي الماء الهاً وفي الارض الهاً ! ماذا اقول ؟ بل ترى في الاحجار والحشرات والاشجار والانهار والوان النبات آلهة تقدم اليها الصلوات وضروب القربان وتنظم حياتها على اكبار هذه الاشياء واجلالها وتتخذ من هذا الاكبار والاجلال قواعدها الخلقية والسياسية والاجتماعية ، ثم تصور هذه الشعوب وقد تغيرت واستحالت فهي لا ترهب الاشياء ولا تخافها بل تحاول اخضاعها وتذليلها واستخدامها فهي لا ترى في الهواء الهاً وانما هي تحاول ان تفهم الهواء وان تستخدمه في حاجاتها ومنافعها ، وهي لا ترى في الماء الهاً وانما ترى فيه عنصراً من العناصر التي يجب ان تستخدم لحاجة الانسان ولذته ، وعلى الجملة هي لا تعبد الاشياء وانما تستذلها وتستخدمها .

تصور هذه الشعوب في هاتين الحالين تشعر بالفرق العظيم بين هذين العصرين اللذين يسيطر الشعر في احدهما على الحياة وتسيطر الفلسفة في احدهما الآخر عليها ، ثم تشعر بهذا الزمن الطويل الذي يجب ان تقضيه الشعوب لتنتقل من احدى هاتين الحياتين الى الاخرى . ونحن اذا سألنا التاريخ عن مقدار القرون التي قضتها الامة اليونانية مثلا لتستبدل العقل بالخيال ولتديل للفلسفة من الشعر انبأنا بان هذه القرون ليست اقل من خمسة او ستة . فقد كان سلطان الشعر القصصي مسيطراً على الحياة اليونانية سيطرة كاملة في القرن الحادي عشر والعاشر قبل المسيح ، ثم اخذ العقل اليوناني يوجد وينمو ويسيطر قليلا قليلا على الحياة والغريب أن سيطرته الاولى على الحياة لم تأخذ مظهراً فلسفياً وانما احتفظت بالصورة الشعرية — أريد أن العقل أثر في الشعر فجعل حظه من الفهم والحكم أعظم من حظه من الخيال والحس ، وأخذنا نجد في الشعر القصصي ضروباً من الفهم أو محاولة الفهم وألواناً من الحكم أو محاولة الحكم لم نكن نجدها فيه من قبل ، ومعنى ذلك ان العقل أخذ يختلس سبيله الى الحياة اختلاساً ويسلك اليها طرقاً خفية يسلكها شيئاً فشيئاً دون ان يشعر الناس بذلك أو يلتفتوا اليه . وأخذ الشعر كلما عظم فيه تأثير العقل يفقد جماله الاول وسذاجته الطبيعية شيئاً فشيئاً حتى استحال الى شيء لا نستطيع أن نسميه شعراً وانما نحن مضطرون الى أن نسميه نظما ، وربما كان أحسن مظهر لهذا النوع من الشعر الذي ينتصر فيه سلطان العقل على سلطان الخيال والذي هو أشبه شيء

بكتب التعليم وفصول الفلسفة وأبعد شيء عن هـذا الشعر الرائع الخلاب هذه القصائد التي تنسب الى الشاعر اليوناني « هسيودوس » ولا سيما هذه القصيدة الطويلة التي تسمى « الأعمال والأيام » والتي تجد فيها ضروباً من الأدب وألواناً من العلم مختلفة ، تجد فيها الأخلاق منظمة مرتبة يستدل الشاعر على خيرها وعلى شرها استدلالاً ليس فلسفياً كاستدلال « سقراط » ولكنه ليس شعرياً كاستدلال شعراء « الالياذة » و « الاودسا » وإنما هو شيء بين بين له نصيب من الخيال وفيه حظ من التفكير والتأمل والتجربة ، ثم تجد فيها إلى جانب الاخلاق ضروباً من التعليم العملي يمس الزراعة وفصولها وحاجاتها ونظمها ثم تجد فيها ضروباً من التعليم الديني يصف الآلهة وأخلاقهم والصلة بينهم وبين الناس ، وما أعظم الفرق بين الآلهة في هذا الشعر وبينهم في الشعر القصصي القديم . وكان سلطان هذا الشعر التعليمي منبسطاً على الأمة اليونانيـة في القرن الثامن قبل المسيح وكان المنشـدون ينتقلون به في المدن والقرى ويلقونه على الجماعات كما كان المنشدون ينتقلون « بالالياذة والاودسا » من قبل

غير أنه من الحق أن نتبين بعض الأسباب التي دعت الى هذا التطور وجعلته أمراً محتوماً اذا لم نستطع أن نحصيها كلها . ولست أذكر منها الا سببين اثنين اعتقد أن لهما أعظم الأثر في هذا التطور، أحدهما سبب اقتصادي والآخر سياسي واجتماعي . فأما السبب الاقتصادي فهو هذا التغير الذي طرأ على الحياة اليونانية فأقرها في

المدن والقرى ونظم لها الحكومات وأنواع السلطان وجعلها حاضرة بعد أن كانت بادية . في هذه الحياة الحضرية تغير شعور اليونان بالأشياء وفهمهم اياها وحكمهم عليها، وأخذوا بحكم الزراعة والتجارة والصناعة يشعرون بسلطانهم على الطبيعة وأخذوا يرهبون هذه الطبيعة أقل مما كانوا يرهبونها من قبل . كانوا في العصور الأولى يجنون ثمرات الأرض على أنها نعمة من الآلهة اما الآن فهم يكرهون هذه الأرض على ألا تعطيهم ثمراتها . أضف الى هذا انهم كانوا يجهلون الملكية ونتائجها اما اليوم فقد عرفوا الملكية وأخذت كل اسرة تحرص على حظها من الأرض ونشأت الخصومات بين الاسر واشتد تنازع المنافع فليس غريباً أن يكون لهذا كله تأثير عظيم في تكوين العقل وبسط سلطانه على الحياة . الثاني أن هذه الجماعات اليونانية التي استقرت في الأرض وتحضرت بعد بداوة وأخذت تجني ثمرات الحضارة الحلوة أخذت في الوقت نفسه تبلو ثمراتها المرة . ضاقت بها الأرض واشتدت بينها الخصومات فعرفت الحرب الداخلية والحرب الخارجية واضطرت بحكم هذين النوعين من الحرب الى ضروب من المهاجرة والضروب في الأرض فاستعمرت بلاداً بعيدة في أقطار من الأرض مختلفة في آسيا وفي ايطاليا وصقلية وفرنسا واسبانيا بل في أفريقيا أيضاً . وأنت تعلم هذه النتيجة المحتومة التي يحدثها اختلاط الشعوب المختلفة وما ينشأ بينها من حرب وجهاد ، تنبه العقل اليوناني بحكم هذه الأشياء كلها وأخذ يفهم الحياة على نحو جديد لم يكن مألوفاً له من قبل وكان رقي

العقل مصاحباً لرقي آخر هو الرقي السياسي فلم تكن الأمة اليونانية في حياتها السياسية أثناء القرن الثامن والسابع كما كانت أثناء القرن العاشر والتاسع ، بل بينما كانت الحياة السياسية في العصور الاولى ملكية خالصة تعتمد على سلطان الدين وحده أصبحت في هذا الطور الثاني ارستقراطية ينتقل فيها الحكم من الملك الذي كان مثالا لآله من الآلهة الى الاشراف الذين يمثلون الأسر ومنافعها وحاجاتها أي أن الحكم انتقل من الفرد الى الجماعة أي أن الجماعة وأفرادها أخذوا يشعرون بوجودهم وشخصياتهم ويحاولون أن أن يجعلوا هذا الوجود وهذه الشخصيات أموراً معترفاً بها لا تقبل نزاعاً ولا جدالاً ؛ وبعبارة مجملة اخذت شخصية الفرد تظهر قليلا قليلا وسلطان الفرد يتغلب على سلطان الجماعة ولا يمكن أن يكون هذا الا نتيجة لتنبه العقل وعظم حظه من الحياة . ثم تتبع هذه الشعوب اليونانية سواء في بلادها الاولى أو في مستعمراتها الجديدة تجد هذين النوعين من التطور مطردين بنمو العقل فتقوى شخصية الفرد وتشتد مطامعه وتنشأ عن ذلك الثورات السياسية ثم تنمو المنافع الاقتصادية العامة فتظهر الخصومات بين المدن وتنشأ بينها الحروب وينتج عن هذا كله أنواع من النظم الاجتماعية والسياسية والدولية لم تكن مألوفة من قبل . ومن هنا لا يكاد ينتصف القرن السابع حتى نجد بلاد اليونان كلها أو أكثرها في ثورة سياسية اجتماعية متصلة فليس النزاع الآن بين الملوك والارستقراطية كما كان في القرن الماضي وانما هو بين الارستقراطية

وأفراد الشعب وليس لهذا معنى الا أن سلطان الحياة العقلية قد أخذ ينمو ويمتد حتى أخذ الأفراد جميعاً على اختلاف طبقاتهم يشعرون بشخصياتهم وحقهم لا في الوجود وحده بل في الوجود وفي الحكم أيضاً

هذا التطور الذي لم يعرفه العالم القديم الا في البلاد اليونانية وفي البلاد الرومانية من بعد والذي لم يحدث وحده وإنما حدث معه تطور عقلي لم يعرفه العالم القديم من قبل وكان له الأثر كل الأثر في حياة الانسانية من بعد يدعونا الى أن نعرض لمسألة تحتاج الى شيء من التفكير

بين الشرق والغرب

هذه المسألة هي العلاقة بين اليونان والشرق المتحضر ، فانت تعلم أنه بينما كانت الأمة اليونانية خاضعة لسلطان الشعر القصصي الذي يمثلها ساذجة جاهلة قليلة الحظ من النظم السياسية والاجتماعية الراقية كان الشرق قد انتهى الى درجات من الحضارة مختلفة ولكنها راقية لا تقاس اليها حياة اليونان . كان الساميون في بابل واشور وغيرهما قد بسطوا سلطاناً ضخماً وأسسوا حكومات قوية منظمة وانتهوا الى ألوان من الفن والعلم لا تزال تبهرنا الى الآن . ولست في حاجة الى أن احدثك عما كانت مصر قد انتهت اليه من الحضارة . واذن فليس من شك في أن الاتصال قد وجد واشتد بين هذه الأمم الشرقية الراقية وهذه الأمة اليونانية الساذجة ، وجد هذا الاتصال واشتد وتأثرت الأمة اليونانية من غير شك

بالحضارات الشرقية المختلفة واخذت عن الساميين في آسيا وعن المصريين في أفريقيا أشياء كثيرة مختلفة . ولم تكن الأمة اليونانية جاحدة ولا منكرة للجميل وانما كانت شديدة الاعتراف بالجميل وربما بالغت فيه مبالغة شديدة أيضاً فنسبت كثيراً من الأشياء الى الشرقيين بل نسبت مدناً مختلفة الى المصريين حيناً والى الفينيقيين حيناً آخر وعدت نفسها دائماً تلميذة للأمة المصرية وغيرها من الأمم الشرقية الاسيوية في الحضارة وألوان الفن . فالى أي حد كان تأثير هذه الأمم الشرقية في الأمة اليونانية ؟ ثم الى أي حد كان تأثير هذه الأمم الشرقية في تكوين الفلسفة اليونانية التي لا تزال تدبر حياة العقل الانساني الى الآن ؟ هذه هي المسألة التي نريد أن نقول فيها كلمة موجزة ونأسف لأن قوماً قد لا يرضون ولكن الحق أحق أن يتبع

نعتقد ونظن أن غيرنا من مؤرخي الفلسفة المحدثين يعتقد أيضاً انه لم يكن للشرق في تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليوناني والسياسة اليونانية تأثير يذكر . انما كان تأثير الشرق في اليونان تأثيراً عملياً مادياً ليس غير . فقد أخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ولكنها عملية مادية كما قلنا ، أخذوا عنهم مثلا نظام النقد وأخذوا عنهم نظام المقاييس وأخذوا عنهم شيئاً من الموسيقى وتعلموا منهم فنوناً عملية كالحساب والهندسة ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئاً عقلياً يذكر . فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك الى نتائج قيمة فهم لم يضعوا علم الفلك وانما هذا العلم

يوناني لم ينشأ عن النتائج البابلية وإنما نشأ عن البحث اليوناني والفلسفة اليونانية . ولئن كان المصريون قد وصلوا الى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة وانما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكاراً . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نجد عند اليونان أشياء لا نجد شيئاً يشبهها في الشرق القديم ، نجد عندهم هذه المذاهب الفلسفية المختلفة التي حاولت منذ القرن السادس فهم الكون وتفسيره وتعليله ثم نجد عندهم هذه الفلسفة فلسفة ما بعد الطبيعة وما نشأ عنها من أنواع البحث التي نظمت العقل الانساني ولا تزال تنظمه الى الان ثم نجد عندهم هذه الفلسفة الخلقية التي انشأت علم الأخلاق والتي لم يعرفها العالم القديم من قبل. ويجب أن نلاحظ أن العقل الانساني ظهر في العصر القديم مظهرين مختلفين ؛ أحدهما يوناني خالص هو الذي انتصر وهو الذي يسيطر على الحياة الانسانية الى اليوم والى آخر الدهر ، والآخر شرقي انهزم مرات أمام المظهر اليوناني وهو الآن يلقي السلاح ويسلم للمظهر اليوناني تسليماً تاماً ...

بينما نجد العقل اليوناني يسلك في فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفي الخصب الذي نشأت عنه فلسفة سقراط وافلاطون وارسططاليس ثم فلسفة « ديكارت » « وكانت » « وكونت » « وهيجل » « وسبنسر » نجد العقل الشرقي يذهب مذهباً دينياً خالصاً في فهم الطبيعة وتفسيرها. فلم يستطع العقل الشرقي أن يظهر شخصية فلسفية قوية في فهم العالم وتفسيره وانما خضع للكهان في

عصوره الاولى وللديانات السماوية في عصوره الراقية وامتاز بالانبياء كما امتاز العالم اليوناني الغربي بالفلاسفة . هناك شيء آخر نجده عند اليونان ولا نجده في الشرق وهو هذا التطور السياسي الخصب الذي أحدث النظم السياسية المختلفة في المدن اليونانية من ملكية وجمهورية ارستقراطية وديموقراطية معتدلة أو متطرفة والذي لايزال أثره قوياً في أوربا الى اليوم والى آخر الدهر والذي اخذ الشرق يتأثر به في نظمه السياسية أيضاً . بينما كانت المدن اليونانية تخضع لهذا التطور الغريب الذي حقق حرية الافراد والجماعات والذي انتصر حتى أصبح المثل الاعلى للحياة الحديثة في الشرق والغرب كان الشرق خاضعاً لنظام سياسي واحد لم يتغير ولم يتبدل وهو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذي تفقد فيه الجماعات والافراد كل حظ من الحرية . فكيف نستطيع أن نفسر هذا الاختلاف بين الشرق والغرب ؟ ولمَ نفسره ؟ وما حاجتنا الى هذا التفسير ؟ يكفي أن نسجل الحقيقة الواقعة وهي أن الحياة اليونانيـة التي خضعت للشعر في أول أمرها ثم خضعت بعد ذلك للعقل كانت أخصب حياة عرفها الانسان في العالم القديم

سقراط

بين يدي الآن كتاب ظهر في هذه الأيام موضوعـه تاريخ الفـكر اليوناني لأستاذ من علماء الفرنسيين هو المسيو « ليون روبان » وليس هذا الـكتاب الضخم القيم أول كتاب ظهر فى هذا الموضوع ولن يكون آخر كتاب بل ليس هو الـكتاب الوحيد الذي ظهر في هذه الأيام من نوعه وانما هناك كتب كثيرة ظهرت وتظهر

وستظهر في هذا الموضوع لأن الاوربيين يتخذون هـذه القاعدة قانوناً لهم وهي ان ليس الى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل الا اذا فهمت مصادرها الأولى ومصادرها الأولى هي الحياة اليونانية من جهة والرومانية من جهة أخرى أو قل هي الحياة اليونانية لأن حياة الرومان كانت من أكثر وجوهها متأثرة بالحياة اليونانية . واذ كنا قد أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك سبيل الاوربيين لا في حياتنا العقلية وحدها بل في حياتنا العملية على اختلاف فروعها ايضاً فليس لنا بد من أن نسلك سبيل الاوربيين في فهم هذه الحياة التي استعرناها . أقول اننا اخذنا في هذا العصر الحديث نسلك السبيل الاوربية في جميع فروع الحياة ونعدل عن حياتنا القديمة عدولا يوشك أن يكون تاماً ، وأحسب انك لن تطالبني بالدليـل على ذلك فانت في المدرسة ستتعلم العلم الاوربي وأنت اذا قرأت تقرأ العلم الاوربي واذا فكرت فعلى النحو الاوربي وأنت في بيتك وفي صلاتك المختلفة تسلك المسلك الاوربي وأنت في حياتك السياسية وفي نظامك الاداري والاجتماعي تنهج المنهج الاوربي ، وما أحسب اننا نكتفي من هذه الحياة بتقليد القردة وانما اعلم اننا نريد أن نتخذها حياة لنا عن فهم وبصيرة . واذن فلنفهمها قبل كل شيء ولنتبين (اذا كان الامر كذلك) كيف كانت حالة الفكر في تلك العصور اليونانية الخصبة وكيف كانت قيادة الفلسفة اياه ولنبدأ من هؤلاء الفلاسفة الذين أشرفوا

على قيادة الفكر اليوناني ولا يزالون يشرفون على قيادة الفكر الإنساني بأيهم وزعيمهم جميعاً « سقراط »

ولست أستطيع أن أحدثك عن سقراط دون أن ألفتك الى أنه لم يتولَّ قيادة الفكر اليوناني الا بعد أن ارتقى هذا الفكر وانتهى من الرقي الى حد عجيب وأن الفلسفة سلكت من قبله طرقاً مختلفة شديدة الالتواء وأفلست فيها واحدة بعد أخرى وأن هذه الفلسفة التي أفلست في آخر الامر كانت أيام انتصارها مشرفة على العقل اليوناني تقوده وتدبره وتنتهي به الى الخير ولكن هذا العقل كان شديد التطور سريع الاستحالة فلم يكن بد لتلك المذاهب الفلسفية من أن تنتهي الى ما انتهت اليه من افلاس ولم يكن بد من أن يظهر مذهب فلسفي جديد يلائم هذه الحياة الجديدة التي انتهى اليها العقل اليوناني في آخر القرن الخامس قبل المسيح . تستطيع أن تقرأ في غير هذا الفصل من كتب التاريخ الفلسفي كيف نشأت الفلسفة اليونانية وكيف جاهدت لتنتصر على الشعر والدين وكيف التمست تفسير هذا الكون في الارض مرة وفي السماء مرة أخرى وفي الماء حيناً وفي الجو حيناً آخر ثم كيف عدلت عن المادة الى المعنى وكيف تعمقت في بحثها المعنوي دون أن تنتهي الى شيء قيم وكيف كانت أثناء هذا البحث والاضطراب مصدراً لهذا التطور السياسي الذي أقر النظام الديمقراطي في أثينا وغيرها من المدن اليونانية . أما أنا فلن أحدثك من هذا كله بشيء وانما أحدثك في كلمات موجزة عن حال العقل اليوناني أيام سقراط لتستطيع أن تفهم فلسفة سقراط .

وما نشأ عنها من المذاهب المختلفة . أما الحياة العامة الآثينية فكانت متأثرة بشيئين مختلفين احدهما النظام الديمقراطي المتطرف الذي يقوي حرية الفرد الى أقصى حد ممكن ويجعل شخصيته بارزة تستطيع أن تعاند الدولة وتنتصر عليها احياناً . والثاني هذا الاختلاط الشديد بين الشعوب المختلفة المتباينة الذي كان يبعث على الحياة العقلية القوية ويجعلها مضطرمة ابداً والذي كان يبعث على اصطدام المنافع وتنازعها وتعقدها الى حد عظيم . أضف الى هذين السببين ما اشرت اليه من افلاس المذاهب الفلسفية الأولى تنته الى هذه النتيجة وهي ان العقل اليوناني في ذلك العصر كان قد وصل الى حال من الشك لم يعرفها من قبل . شك في الفلسفة التي عجزت عن تفسير الكون وشك في الدين الذي أصبح من السخف بحيث لا يستطيع أن يؤمن به عقل يحترم نفسه ، وشك في الحياة السياسية التي اشتد فيها الاضطراب وعبثت بها الحروب من جهة والثورات من جهة أخرى والاهواء الشخصية من جهة ثالثة ، وشك في النظام الاجتماعي الذي لا قيمة له اذا لم يعتمد على فلسفة قوية أو دين متين أو سياسة ثابتة ، شك في كل شيء وحرص على المنفعة الخاصة التي يمكن أن يؤمن بها الفرد حقاً لانه يمسها ويستمتع بها ويسعى اليها . في هذه الحال نشأت فلسفة « السوفسطائيين » (Sophistes) التي كانت في حقيقة الامر مرآة صادقة للحياة الاجتماعية والتي كانت تنكر كل شيء في نفسه ولا تعترف الا بشيء واحد وهو المنفعة الفردية والتي كان زعماؤها يطوفون الارض كما كان يفعل الشعراء

القدماء يحملون الشك والانـكار ويخدمون المنفعة الفردية ويعلمون الفرد كيف يلبس الحق بالباطـل وكيف يعبث بعقول القضاء في المحـكمة وبعقول الجماعات في المجالس السياسية العليا وكيف يعبث بعقول الافراد ومنافعهم فيما يكون بينه وبينهم من حوار

في هـذه الحال السيئة نشأ سقراط . ولم يكن من أسرة ممتازة بل لم يكن من أسرة متوسطة وانما كان الى الطبقة الدنيا أقرب منه الى الطبقات الاخرى . كان أبوه حفاراً وكانت أمه قابلة . ولم يكن حسن الخلق ولا جميل الطلعة وانما كان قبيح المنظر ممقوت الشكل ولـكنه كان ذكي القلب نافذ البصيرة شديد الفطنة ولم يكن بدعاً من الآثينيين في عصره وانما سلك السبيل التي كان يسلـكها غيره من الناس . يقال أنه تعلم مهنة أبيه ولـكنه لم يمض فيها . ومهما يكن من شيء فقد كان كغيره من الشبان الآثينيين يختلف الى المجالس العامة والى الحمام والى محال الالعاب الرياضية وكان يستمع للخطباء السياسيين في جماعـة الشعب والقضائيين في المحـكمة وكان يجلس الى « السوفسطائيين » فيسمع منهم ويحاورهم وكان يدرس المذاهب الفلسفية المختلفة حتى اذا قضى من هذا كله وطره وبلغ سن الرجولة أحس ان في نفسه شيئاً يخالف ما في انفس الآثينيين وان له ميولاً تخالف ميولهم واهواء تخالف اهواءهم ؛ وأخذ يحاور السوفسطائيين من جهة والشبان من جهة أخرى لا يصرفه ذلك عن واجباته الوطنية . فقد كان يشترك في الانتخابات ويجلس في جماعـة الشعب بل انتخب في مجلس الشورى ورأس جماعة الشعب وكان يؤدي واجبه

العسكري. فقد اشترك في الحرب غير مرة وأظهر فيها بلاءً حسناً وشجاعة قيمة وتضحية بالنفس في سبيل الاصدقاء . ولكنه كان يحاور كل من لقيه ضروباً من الحوار غريبة لم يألفها الناس في ألفاظ ان لم تكن راقية مهذبة فقد كانت قوية خلابة ساحرة وما هي الا أن كلف به الشبان وكلف بهم فسعوا اليه أو قل سعى اليهم ؛ فلم تكن له مدرسة وانما كان هو مدرسة متنقلة يحاور في الميادين العامة وفي حوانيت الحذائين وغيرهم من الصناع وفي اروقة الحمام وفي الملاعب الرياضية وربما حاور في منازل المومسات وقد فتن به الشبان فتنة لم يفتنوها بأحد من قبله فالتفوا حوله التفافاً شديداً واستغرق حواره ايامهم يومه كله أو اكثره . وكان حسن الدعابة بل لم يكن حواره الا دعابة متصلة وهزلا مستمراً ولكن هذه الدعابة الحلوة وهذا الهزل اللذيذ لم يكونا الا ستاراً لطيفاً شفافاً ينم بما دونه من حق وجد . لم تكن له مدرسة ثابتة ولم يكن له موضوع بعينه يدرسه أو يحاور فيه وانما كان يدرس كل شيء ويحاور في كل شيء ويتخذ كل شيء وسيلة للبحث والجدال وطريقاً الى غاية معينة سنراها بعد حين . كان اذن يخالف غيره من فلاسفة عصره من هذين الوجهين من حيث أنه لم يكن يلتزم مكاناً للدرس ومن حيث أنه لم يكن يلتزم موضوعاً للدرس . وكان يخالفهم من جهة أخرى ؛ فقد كان هؤلاء الفلاسفة من (السوفسطائيين) سواء منهم من طوف في الارض وانتقل من مدينة الى مدينة يسعى الى الطلاب ويلتمسهم ومن أقام في مدينة بعينها يسعى اليها الطلاب ويلتمسونه ؛ كانوا

جميعاً يتخذون الفلسفة والدرس وسيلة الى المجد. وكسب المال : وسيلة الى المجد فكانوا ينشئون الفصول والرسائل يتلونها في المحافل والمشاهد العامة ليفتن بهم الجمهور ويعجب بهم الناس كما كانوا يتعرضون للفلاسفة وزعماء العصر يحاورونهم ويجادلونهم ويخلبون الناس بهذه المقدرة التي كانت تتيح لهم أن يلبسوا الحق بالباطل ويسبغوا على الخطأ ثوب الصواب . ووسيلة الى الكسب فكانو لا يلقون دروسهم مجاناً وانما يتقاضون عليها الاجور الضخمة وكانوا يحاسبون الطالب حساباً دقيقاً على ما القوا اليه من علم

ـ أتريد درساً واحداً أم دروساً عدة ؟ أم أنت تريد أن تتعلم الفلسفة كلها ؟ لكل شيء من ذلك اجرة

أما سقراط فلم يكن يلتمس مجداً ولا كسباً ، ولم يكن يحفل بالمجامع العامة يلقي فيها الخطب أو يقرأ فيها الفصول وانما كان يفر من ذلك فراراً ولا يأتيه الا اذا اضطر اليه اضطراراً في جماعة الشعب أو مجلس الشورى . وكان لا يعد الخطب للناس يلقونها في المحاكم أو الجماعات السياسية وكان لا يتقاضى على علمه أجراً لانه كان يعتقد أنه لا يعلم الناس شيئاً . فليس غريباً أن يفتتن به الجمهور من شباب اثينا وليس غريباً أن يتسامع به الناس في « اتيكا » ثم في البلاد اليونانية الاخرى وليس عجيباً أن يفد اليونانيون من أقطار الارض على اثينا ليلقوا سقراط ويتحدثوا اليه . ولكن حادثة حدثت فغيرت من سيرة سقراط ورأيه في نفسه شيئاً كثيراً . ذلك أن أحد المعجبين به وكانوا كثيرين ذهب الى « دلف » (Delphes)

وسأل « ابولون » (Apollon) : أبين فلاسفة اليونان وحكمائهم من يفوق سقراط أو يبلغه فلسفة وحكمة فاجابت الكاهنة أن لا . وبلغ ذلك سقراط فحمله على أن يتبين السبب الذي بعث الاله « ابولون » على أن يعلن أنه أحكم الناس وأحسنهم فلسفة ، ولم يكن سقراط يرى في نفسه هذا الرأي وانما كان يرى أنه أشد الناس جهلاً وأقلهم حظاً من علم أو فلسفة وما هي الا أن أخذ في البحث والتحقيق فألم بالحكماء والفلاسفة وبالشعراء والكتاب وبالصناع واهل الفن يحادثهم ويسألهم ويعلم علمهم حتى انتهى الى هذه النتيجة وهي أنه أحكم الناس حقاً . ذلك لانه رأى هذه الطبقات كلها شديدة الغرور قوية الايمان بحظها من العلم أو الفلسفة أو الشعر أو الفن ، شديدة الجهل بنفسها . ورأى أنه هو الرجل الوحيد الذي لا يغره شيء ولا يعلم الا شيئاً واحداً هو أنه شديد الجهل بكل شيء . وكان القدماء قد كتبوا على معبد « دلف » هذه الحكمة القديمة « اعرف نفسك بنفسك » فما أسرع ما اتخذها سقراط شعاراً له وقاعدة لحياته وحواره وتعليمه ؛ وما أسرع ما اعتقد أنه قد أصبح شيئاً يشبه الانبياء وان « ابولون » قد كلفه مهمة عظيمة الخطر هي أن يبث الحكمة في الناس ويعلمهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم . من ذلك الوقت جد سقراط في تأدية رسالته وتحقيق الواجب الذي كلفه اياه « ابولون » فتتبع الشباب الآثيني في كل مكان وأخذ عليه كل سبيل حتى لقد كان يمشي في طريقه فاذا رأى شاباً يمضي لعمل من أعماله أخذ عليه الطريق ومنعه أن يمضي وأخذ يلقي عليه أسئلة

عادية لا قيمة لها فيجيبه الشاب أجوبة تلائم هذه الاسئلة ولكنه يمضي في السؤال ويمضي الشاب في الجواب واذا هما في حوار فلسفي قد أنسى الشاب عمله وجمع حولهما الناس . وقد ظهر تأثر الجماعة الاثينية بسقراط وجزع الطبقات الارستقراطية من سلطانه على الشباب في نحو سنة ٤٢٥ قبل المسيح حين أخذ الشاعر التمثيلي المشهور « ارستفان » (Aristophane) الذي كان لسان الاحزاب الارستقراطية المحافظة يعرض بسقراط في قصصه التمثيلية المضحكة ولا سيما في قصة الطير والضفادع ولا سيما في قصة السحاب التي خصصت كلها لسقراط والهزء به وأصبح سقراط شيئاً يخيف الارستقراطية لانه كان شديد العبث بالعادات والاخلاق الموروثة ولكنه لسوء حظه لم يرض الديمقراطية بل كان بها شديد العبث أيضاً . ألم يكن يتخذ الدين موضوعاً لحواره ؟ ألم يكن يتخذ النظم الديمقراطية موضوعاً لهذا الحوار ، ألم يكن يظهر كلما سنحت له الفرصة سخطه على حكم الشعب واستهزاءه بهذا الحكم . ثم أليس هو الذي عارض أشد المعارضة حين أرادت جماعة الشعب أن تحاكم القواد الاثينيين المنتصرين الذين اتهموا بالتقصير في جمع الغرقى في موقعة « ارجونوس » (Arginus) . أبى سقراط على جماعة الشعب محاكمة هؤلاء القواد وكان من رؤساء الجلسة في ذلك اليوم ؛ ولكن جماعة الشعب حاكمت هؤلاء القواد وقضت عليهم بالموت وانفذت فيهم هذا القضاء وكرهت سقراط ثم لم تلبث أن نسمت

على ما قدمت واحست أنها قد حرمت أثينا ظلماً عشرة من قوادها الماهرين حين كان احتياجها الى الرجال شديداً

كان سقراط قليل الميل الى الديموقراطية كما كان شديد البغض للاستبداد عدواً للارستقراطية وقد اغضب هذه الطبقة كما أغضب الشعب ، أغضبها حين أبى على الطغاة الثلاثين ما أرادوه عليه من المعونة وحين عرض نفسه بذلك للخطر . ومن هنا لم ينته القرن الخامس حتى كان سقراط قد الب على نفسه الديمقراطية المنتصرة والارستقراطية المنهزمة كما أنه كان قد الب على نفسه الشعراء والفلاسفة والمعلمين لانه صرف عنهم الشباب من جهة ولانه كان شديد السخر بهم من جهة أخرى . فما هي الا أنه تم انتصار الديمقراطية على الطغاة الثلاثين حتى تقدم اثنان من الآثينيين أحدهما شاعر بقضية الى الشعب يتهمان فيها سقراط تهماً عدة منها أنه افسد الشباب ومنها أنه لا دين له ومنها أنه يعبث بالنظم السياسية القائمة . وحوكم سقراط فلم يكن موقفه من قضاته موقف الرجل الذي يريد أن يدافع عن نفسه حقاً ويثبت براءته حقاً وانما كان موقفه من القضاة موقف الساخر بهم المزدري لهم ومع ذلك فقد صدر الحكم عليه باغلبية قليلة جداً وكانت العادة عند الآثينيين وغيرهم من القدماء أن يصدر في مثل هذه القضايا الجنائية حكمان الاول يثبت ادانة المتهم أو ينفيها ، والثاني يقرر العقوبة التي يستحقها المتهم اذا ثبتت ادانته وكانت العادة اذا ثبتت ادانة المتهم أن يسأل عن العقوبة التي يرى أنه يستحقها وأن يسأل المدعي عن العقوبة التي يرى أن المتهم خليق

بها ثم تفصل المحكمة بين هذين الجوابين فتقر احدى العقوبتين، اللتين اقترحهما المتهم والمدعي . فلما صدر الحكم بادانة سقراط سئل عن العقوبة التي يرى أنه يستحقها فاجاب ساخراً مستهزئاً أنه يرى أن تطعمه الدولة مجاناً بقية حياته لأنه أنفق هذه الحياة في تعليم الآثينيين وتهذيبهم ، وسئل المدعون فطلبوا الموت ، وكان القضاة قد سخطوا لهذه السخرية القاسية فاقروا في حكمهم ما طلب المدعون وقضي بالموت على سقراط .

وليس من شك في أنه لو أحسن الدفاع عن نفسه لبرىء وليس من شك في أنه لو لم يسخر بالقضاة بعد ادانته لما حكم عليه الا بغرامة تختلف قوة أو ضعفاً ولكن موقفه أحنق عليه القضاة ثم انتهت به هذه السخرية الى أن اعتبر مهيناً بالدولة فعوقب معاقبة من تثبت عليه الخيانة العظمى أو الخروج على النظام القائم

أما اذا أردنا أن نتبين نصيب هذا الحكم من العدل أو الجور فنحن مضطرون الى أن نرى فيه رأيين مختلفين . احدهما أن آثينا لم تكن ظالمة حين قضت بالموت على هذا الرجل الذي خرج بفلسفته وتعليمه على النظام القائم واتخذ القوانين سخرية وهزءاً وانتهى الى أن أهان الشعب ممثلا في المحكمة . والثاني أن آثينا وان كانت قد عدلت في حكمها بالقياس الى نظمها وقوانينها فليس من شك في أنها قد أساءت حين قضت بالموت على رجل لا لشيء الا لأنه خالف الجمهور في الرأي . وبهذا الحكم كانت

الديمقراطية الآثينية عدوة لحرية الرأي ، وحسبك بهذا سبة وعاراً وحسبك به مجداً وفخاراً لسقراط

صدر الحكم على سقراط والآثينيون في حفل من حفلاتهم الدينية قد أرسلوا وفدهم الى « ابولون » في جزيرة « ديلوس » (Delos) وكان « ابولون » صاحب « ديلوس » هذا الهاً خاصاً « لليونانيين » يخالف من وجوه كثيرة «ابولون» صاحب «دلف» الذي كان الهاً للدوريين خاصة ولليونان جميعاً ، فكانت أثينا تعنى عناية خاصة باله « ديلوس » وترسل اليه وفداً من الحجيج في كل سنة يقيمون الحفلات حول معبده في الجزيرة التي يقال انها كانت سابحة على وجه الماء حينما هبطت أم ابولون من السماء وكانت حاملا وكانت هاربة من زوج « زوس » (Zeuss) كبير الآلهة . فأوت الى هذه الجزيرة السابحة ولم تكد تأوى اليها حتى استقرت في مكانها وولدت هذه الآلهة «ابولون» و «ارتميس» أخته . وكانت العادة عند الآثينيين ألا ينفذ حكم الموت اثناء هذا العيد فاذا قضي بالموت على متهم اثناء هذا العيد انتظر في السجن حتى يؤوب الحجيج ثم ينفذ فيه الحكم . فاضطر سقراط الى أن ينتظر أياماً في سجنه وأخذ أصحابه وتلاميذه يختلفون اليه في السجن كل يوم يقضون معه بياض النهار في حوار وجدال كأن لم يصدر عليه حكم وكأنه لم يكن ينتظر الموت حتى آب الحجيج وآن تنفيذ الحكم . في هذا اليوم أقبل تلاميذ سقراط على استاذهم كعادتهم ولكنهم كانوا جزعين مضطربين وكان هو كعادته هادئاً مطمئناً مبتسماً

فكان بينه وبينهم حوار معروف هو آية من آيات الفلسفة والبلاغة الانسانية وهو الحوار الذي صوره افلاطون في كتابه « فيدون » (Phédon) والذي يثبت فيه سقراط خلود النفس والذي كان له التأثير العظيم في الحياة الرومانية أيام الامبراطورية حين كان القياصرة يقضون بالموت على زعماء الرومان واشرافهم فاذا أنفذ اليهم أمر قيصر ان يموتوا استعدوا للموت هذا الاستعداد الجميل فعنوا باجسامهم العناية العادية وأخذوا في أمورهم كما كانوا يأخذون من قبل فمنهم من كان يجد ومنهم من كان يلهو حتى اذا فرغوا من ذلك قرأوا «فيدون» ثم قتلوا أنفسهم تنفيذاً لأمر قيصر

ولست أريد أن انتقل من هذا الموضوع دون أن أشير الى هذه القصة التي اتفق عليها المؤرخون من أن بعض تلاميذ سقراط هيأ له الهرب وأعد له وسائله وألح عليه فيه ، ولكن سقراط أبى أن يهرب ولو شاء لنجى ، أبى الهرب اكباراً لقوانين الدولة واحتراماً لأحكامها . الحق انا لانستطيع أن نفهم الصلة بين هذا الموقف الذي وقفه سقراط بعد الحكم والذي يمثله خاضعاً لنظام الدولة محترماً له وبين ذلك الموقف الذي وقفه اثناء المحاكمة والذي يمثله ساخراً من نظام الدولة عابثاً به . وأكبر ظننا أن هذه القصة لا تخلو من مبالغة أو قل أن سقراط لم يأب الهرب الا ازدراء للحياة وشوقاً الى الموت فنحن نراه في حواره ينتظر الموت انتظار مشتاق اليه مؤمن بأنه سيكون سعيداً به . وقد تناول السم وجاد

بنفسه بين تلاميذه في فبراير أو مارس سنة ٣٩٩ قبل المسيح وهو في نحو السبعين من عمره

أوجزت لك حياة سقراط ولكني أشد حرصاً على الأمانة التاريخية من أن أخفي عليك شيئاً يضطرب في بعض أذهان العلماء العصريين من أمر سقراط. ذلك أن من العلماء المعاصرين من يشك في وجود سقراط أو ينكره ويريد أن يرى فيه رأياً يشبه رأي النقاد في واضع « الالياذة » و « الاودسا » أي يريد أن يعتقد أن سقراط شخص خرافي اخترعه القدماء ليضيفوا اليه هذه الفلسفة التي تسمى السقراطية والتي نشأت عنها فلسفة أفلاطون وارسطاطاليس وغيرهما من الفلاسفة. ولست أخفي عليك أن هذا الرأي لا يزال شاذاً وأن الكثرة المطلقة من العلماء والمؤرخين لا تكاد تحفل به، ولكن من يدري ؟ فقد كان رأي الذين أنكروا شخص « هوميروس » شاذاً في عصر من العصور وكانت الكثرة المطلقة من العلماء والمؤرخين لا تحفل به ثم تمت له السيادة الآن. أليس من الممكن أن تتم السيادة في يوم من الأيام لهذا الرأي الذي ينكر وجود سقراط ؟ نعتقد أن هذا لن يكون. ذلك لان سقراط لم يعش في عصور جاهلية وانما عاش في عصر تاريخي معروف لا يخفى فيه على الناس شيء ولا يمكن أن يجري فيه على الناس خداع غليظ كهذا الخداع. ليس عندنا شك في أن سقراط قد وجد وعلم وأثار العقل الأثيني وأغضب الأثينيين وحوكم وقضي عليه بالموت وانفذ فيه هذا القضاء. ولكن الذين ينكرون شخص سقراط معذورون.

أولا لأن الآثار التاريخية المباشرة التي تثبت وجود سقراط وما اعترض حياته من الخطوب قد فقدت منذ زمان طويل فنحن لا نكاد نحقق تاريخ ميلاده وليست لدينا نقوش معاصرة فيها اسمه أو فيها اشارة الى ما أصابه ولكن هذا كله لا يدل على شيء فقد فقدنا من آثار القدماء معظمها ولم يكد يبقى لنا منها شيء وثانياً لان سقراط لم يكتب شيئاً وانما كان تعليمه حواراً لا يسجل فلم يبق لنا من سقراط كتاب يمثل شخصيته تمثيلا ما وانما نحن مضطرون الى أن نلتمس شخصية سقراط فيما ترك تلاميذه من الكتب ، نلتمسها عند أفلاطون وعند زينوفون (Xénophon) وعند ارسطاطاليس وعند غيرهم من الفلاسفة والكتاب الذين حاوروه أو حاوروا تلاميذه . وهؤلاء الفلاسفة والكتاب لا يتفقون في تصوير سقراط بل لا يكادون يتشابهون في هذا التصوير . أضف الى هذا كله أن آثار هؤلاء الفلاسفة والكتاب قد أصابها شيء كثير من عبث الزمان فهي لا تؤدي الينا شخصية سقراط على وجه مرضي، ثالثاً لان الفلاسفة الذين حاوروا سقراط وأخذوا عنه قد علموا الفلسفة بعده في مدن مختلفة بل في قارات مختلفة وكان من المعقول أن تتشابه فلسفتهم ويتقارب تعليمهم اذ كان كله منتهياً الى مصدر واحد هو سقراط . ولكن هذه الفلسفة مختلفة وهذا التعليم متناقض فاذا نطقت بلفظ الفلسفة السقراطية لم تفهم منها شيئاً متشابهاً وانما فهمت منها أشياء متباينة تبايناً شديداً كما سترى ، رابعاً لان حياة سقراط وموته وما اعترضه من الخطوب كل ذلك قد أحدث في نفوس

الناس أثراً عظيماً وما هي الا أن كثرت الاساطير والاكاذيب حول سقراط وحياته وأخذ الكتاب المتأخرون هذه الاساطير والاكاذيب فخلطوها خلطاً ومزجوها بالصواب مزجاً فاصبح من العسير جداً تمييز الحق في أمر سقراط من الباطل . ولكن كل هذا لا يثبت أن سقراط لم يوجد وانما يثبت شيئاً واحداً لا يختلف فيه اثنان وهو أن شخصية سقراط شيء عسير الاثبات والتمييز ، وما أكثر الفلاسفة والابطال الذين بعد بهم العهد فأصبح من العسير اثبات شخصياتهم وتمييزها . على أن مثل هذا البحث يخرج بنا عن الخطة التي رسمناها لانفسنا في هذه الفصول فلنتركه ولنمض فيما نحن فيه من ايجاز فلسفة سقراط وأثرها في الحياة العامة بعده

الفلسفة السقراطية

قلنا أن سقراط اتخذ لنفسه قاعدة جعلها إماماً له في سيرته وفي تعليمه وهي هذه الحكمة التي كانت مكتوبة على معبد « دلف » (اعرف نفسك بنفسك) وهذه الحكمة نفسها اذا تأملناها أوضحت لنا جملة الفلسفة السقراطية فهذه الفلسفة تنحصر أو تكاد تنحصر في شيئين : الاول ان الانسان قد جهل نفسه في جميع العصور المتقدمة وان جهله نفسه هو الذي حمله على أن يلتمس العلم في الخارج فيبحث عنه مرة في الارض واخرى في السماء وحيناً في الجو وحيناً في الماء وكان الحق عليه أن يبدأ بنفسه فيدرسها ويتبين أمرها حتى اذا فرغ منها استطاع أن ينتقل الى الخارج وليس هو في حاجة الى ذلك لانه لن يفرغ من درس نفسه أبداً ولانه سيجد في نفسه اذا

درسها كل شيء . الثاني أن الفلسفة يجب أن تقوم منذ اليوم على معرفة النفس والعلم بها أي أن الفلسفة يجب أن تكون انسانية أي أن الفلسفة يجب أن تقوم قبل كل شيء على الاخلاق

فأنت ترى أن هذه القاعدة السقراطية قد حملته قبل كل شيء على أن يعلن جهله لانه لا يستطيع أن يعلم شيئاً قبل أن يعلم نفسه واذ كان يجهل نفسه فهو يجهل كل شيء . ثم حملته بعد ذلك على أن يتبين نفسه فيبحث عن جوهرها وخصالها وعما يلائمها وما يخالفها وبهذا البحث وضع سقراط أساس علم النفس من جهة وأساس علم الاخلاق من جهة اخرى . أما علم النفس فلم يتعمق فيه سقراط لأن سقراط لم يكن نظرياً ولا مفتوناً بالبحث الخالص الذي ليس بينه وبين الحياة العملية صلة وانما كان يشبه السوفسطائية شبهاً قوياً ويخالفهم مخالفة قوية . كان يشبههم من حيث أنه كان يمقت البحث النظري الخالص وكان شديد الميل الى البحث الذي يمس الحياة العملية ويهدي الى سبل الخير فيها . من هذه الجهة كان ينكر المذاهب الفلسفية القديمة كما كان ينكرها السوفسطائيون وكان يعبث بالعادات والنظم الموروثة كما كان يعبث بها السفسطائيون ولكنه كان يخالف السوفسطائيين خلافاً شديداً فقد كان هؤلاء يعرضون عن النظر الخالص الى المنفعة العملية الخالصة وكانوا يبتغون المنفعة في أغلظ وجوهها وأحطها يبتغون المجد والصوت والمال ولذات الحياة ويسلكون الى هذا كله أيسر السبل وأسهلها لا يعوقهم عنه عائق ولا يمنعهم منه مانع . أما سقراط فكان يعرض

عن النظر الخالص لا الى هذه المنافع المبتذلة بل الى المنفعة المحققة . الى منفعة النفس من حيث هي فلم يكن يحفل بالمجد ولا بالثروة ولا بالشهرة وانما كان يبتغي السعادة وقد بحث عنها كثيراً واهتدى اليها آخر الأمر فعرف أن السعادة انما هي الخير أي أن يكون الانسان خيّراً عدلاً مؤثراً للحق من حيث هو مطمئناً الى الحق في نفسه . فبينما كان السوفسطائيــة يعلمون الناس أن يكونوا نفعيين ماديين كان سقراط يعلم الناس أن يكونوا نفعيين ولـكن على الوجه الروحي الذي يؤثر الباقية على الفانية ويستطيع أن يميز الجوهر من العرض وأن يزدري زخرف الحياة في سبيل السعادة الحقيقية . وبينما كان السوفسطائية ينكرون كل شيء ويجحدون كل حقيقة فيهدمون بذلك كل علم وكل فلسفة كان سقراط يثبت الحقائق ويعلن أن هذا العالم ليس لغواً ولا عبثاً ولا باطلاً ويسلك في اثبات هذا كله سبيلاً تقرب كل القرب من السبيل التي سلكها «ديكارت» (Descartes) بعـده بعشرين قرناً وهي أنه يثبت وجود نفسه أولا فاذا ثبت له وجود نفسه فقد ثبت أن في العالم حقائق ثابتة وان فلسفة السوفسطائية كلها تقوم على شيء من العبث والمغالطة . ذلك أنك مهما تنكر فلن تستطيع أن تنكر نفسك ولن تستطيع أن تنكر انك تفكر وتحس وتشعر وأذن فنفسك وما يصدر عنها من تفكير وحس وشعور كل ذلك حقائق ثابتة لا تحتمل شكا ولا جدالا . ومن هنا قامت الفلسفة السقراطية أولا على محاربة السوفسطائية واثبات أن هناك حقائق موجودة ، ثانياً على أن هــذه الحقائق انما تعلم اذا علمت النفس

الانسانية التي هي السبيل الحقيقية الى ادراكها ، ثالثاً علم أن العلم بهذه النفس ليس معناه الا العلم بجوهرها وما يلائمها وما يخالفها ، رابعاً على أن العلم بهذا كله ليس الغرض منه أو لا ينبغي أن يكون الغرض منه الا السعادة التي هي تحصيل ما يلائم النفس وتجنب ما يخالفها ، خامساً أن الحياة كلها انما تدور حول محور واحد عنه صدرت واليه تنتهي وهو الخير . هذه هي خلاصة الفلسفة التي يمكن أن تضاف الى سقراط . وهي شيء من اليسير أن يوجز في جمل قصار ولكن من العسير جداً أن يحصى تأثيره في الحياة الانسانية والعقل الانساني.

على أن من التقصير أن نزعم أن فلسفة سقراط قد انتهت عند هذا الحد بل من الحق أن نقول أن هناك وجهاً آخر من وجوه الفلسفة السقراطية يحسن ألا ننساه ولا نهمله وهو منهجه في البحث وطريقته في التفكير . فلم يكن سقراط كغيره من الفلاسفة الذين تقدموه ولا كغيره من الفلاسفة الذين جاؤا بعده بزمن قصير يواجه المباحث الفلسفية مباشرة ويهجم عليها هجوماً عنيفاً حتى يخلص منها إلى نتائجها وإنما كان يدور حول المباحث الفلسفية في رفق ولطف وما زال يدور حولها حتى يجد مسلكا ضيقاً يسلكه في رفق ولطف حتى ينتهى إلى النتيجة التي كان يبتغيها . هذه الطريقة الفلسفية هي طريقة الحوار . لم يكن سقراط يضع أمامه مسألة بعينها ثم يأخذ في التحليل والنقد والتعميم حتى ينتهي إلى ما يريد وإنما كان يتحدث فيسأل ويناقش جواب المسئول ثم يسأل ثم يتعرض للسؤال ثم يجيب ثم يورط محاوره في الخطأ أو يورط

هو في الخطأ وما يزال في حوار وفي أخذ ورد حتى يستخلص النتيجة كأنها إحدى القضايا الاولية التي لا تحتمل الشك ولا الجدال.
ومصدر هذه الطريقة أن سقراط كان يعتقد أن النفس بطبيعتها قادرة على العلم بالاشياء وعلى استكشاف الحقائق ولكن ظروف الحياة العملية وأعراضها وما ورث الناس من عادات وأخلاق ومن أساطير وسخافات كل ذلك قد تراكم على هذه النفس الصافية كما يتراكم الصدأ على المرآة، فعمل الفيلسوف ليس هو تعليم الانسان ما لم يعلم وإنما هو اعداد الانسان لاستكشاف الحقائق أو قل ان عمل الفيلسوف إنما هو ازالة هذا الصدأ عن المرآة حتى اذا أتم صقلها وتصفية جوهرها تجلت فيها الحقائق واضحة بينة؛ ومن هنا كان سقراط يعلن أنه لا يعلم الناس شيئاً لانه لا يعلم شيئاً وانما يبحث معهم عن الحق فيجده حيناً ويخطئه حيناً ومن هنا سميت طريقة سقراط طريقة «التوليد» لانه كان يعتقد أن النفس مشتملة على الحقائق كما تشتمل الام على الجنين وان عمل الفيلسوف هو استخراج هذه الحقائق من النفس كما أن عمل القابلة هو استخراج الجنين من الام. وسواء أكانت هذه التسمية صحيحة أم لم تكن، وسواء أكان بينها وبين صناعة أم سقراط صلة أم لم يكن فليس من شك في أن هذه التسمية تصف طريقة سقراط الفلسفية في البحث وصفاً دقيقاً
أعتقد أني قد أجملت لك ما يمكن اجماله من فلسفة سقراط وما هو بمعزل عن النزاع والجدال فهناك مسائل كثيرة يختلف العلماء في صحة اضافتها إلى سقراط. ولم يبق عليّ الآن إلا أن أجمل لك

مقدار التأثير الذي أحدثه سقراط في العصر الذي جاء بعده مباشرة.

قلت ان الشباب الآتيني كان شديد الالتفاف حول سقراط وان الناس تسامعوا به في جميع البلاد اليونانية فاقبلوا اليه واشتركوا في حواره. فلما قضي عليه بالموت وانفذ فيه هذا القضاء ظهر في اثينا روح رجعي معادٍ للفلسفة والفلاسفة ميال إلى المحافظة في الرأي فتفرق تلاميذ سقراط الاصفياء سواء منهم الآتينيون وغير الآتينيين فنهم من عاد إلى وطنه واخذ يعلم الفلسفة فيه ومنهم من هاجر إلى أرض أخرى وأنشأ فيها مدرسة توارثها خلفاؤه من بعده ومنهم من ساح في الارض ومنهم من استخفى في اثينا وترك الفلسفة إلى حين حتى إذا هدأت العاصفة استأنف بحثه الفلسفي وأخذ يعلم الناس. كل هؤلاء التلاميذ نشروا في أطراف الارض اليونانية فلسفة سقراط وفلسفتهم الخاصة وما هي إلا اعوام بعد موت سقراط حتى كان تلاميذه قد انشأوا المدارس المختلفة في أطراف من بلاد اليونان الحقيقية وفي بعض المدن الايطالية والاسيوية بل في أفريقيا وأخذت هذه المدارس بحظوظها المختلفة من الحياة، فمنها ما بقي وحفظت آثاره ومنها ما ذهب به عبث الايام. ولست أذكر من هذه المدارس إلا ثلاثاً كان لها أثر عظيم جداً في حياة العالم القديم وكان لبعضها أثر لا يزال قوياً في حياة العالم الحديث. الاولى مدرسة « الكلبيين » التي أنشأها رجل من تلاميذ سقراط يسمى « أنتستين » (Antistène) في اثينا والتي اتخذت هذا الاسم من المكان الذي انشئت فيه والتي كانت تقوم فلسفتها على قاعدة

سقراط التي قدمناها وهي معرفة النفس بالنفس ولكنها كانت تطبق هذه القاعدة تطبيقاً انتهى بها إلى الزهد وإلى المبالغة فيه لانها حاولت أن تعرف النفس فعوقتها واستغنت بها عن كل شيء وحملتها هذه المعرفة على أن تزدري الحياة والاحياء وما يستمتعون به من لذة وما يتهالكون عليه من زينة . ولعلك تعرف كثيراً من أخبار « ديوجين »(Diogène) الذي كان يبحث عن الانسان فلا يجده لان الانسان عنده هو الذي يعرف نفسه ؛ وأي الناس يعرف نفسه ؟ والذي يقال أنه كان يأوي إلى دن يتخذه له بيتاً وكان لا يكره أن يستظل السماء ويتخذ الارض له وطاء ويشرب الماء بيده يستغني بها عن الاقداح والذي يقال أن الاسكندر زاره وسأله ماذا يريد فاجابه أريد ألا تحجب عني الشمس فقال الاسكندر لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديوجين . كان تأثير هذه المدرسة شديداً جداً في العصور الاولى فقد انبعث تلاميذها في البلاد اليونانية في أزياء الفقراء والمعوزين لا يلتمسون من الناس شيئاً ولكنهم يدعونهم إلى الزهد والقناعة والانصراف عن اللذات ولعلك تذكر ما كان لمثل هذه النظريات من الاثر في حياة العالم القديم ولا سيما أيام الامبراطورية الرومانية وقبيل انتشار الديانة المسيحية.

المدرسة الثانية مدرسة «تورينا» أو مدرسة «برقه» (Cyrène) وهي مدرسة مناقضة من كل وجه للمدرسة التي قدمت لك ذكرها انشأها تلميذ من تلاميذ سقراط يقال له ارستيب (Aristippe)

وتوارثها خلفاؤه من بعده الى أيام المقدونيين في مصر وكانت تقوم أيضاً على قاعدة سقراط « اعرف نفسك بنفسك » ولكنها سلكت سبيلا غير سبيل «الكلبيين» عرفت النفس فوجدت أن الخير انما هو في أن تزدري النفس الحياة والاحياء ازدراء لا يقوم على الزهد والحرمان وانما يقوم على اللذة والاستمتاع بالخير ما وجدت الى هذا الاستمتاع سبيلا. فلمَ الحرمان ؟ ولمَ الزهد ؟ ولم النفاق ؟ ألست تشعر بان شيئاً يلذك وشيئاً يؤذيك فالخير هو أن تؤثر ما يلذك على ما يؤذيك ولكن لا على أن تجعل نفسك عبداً للذة بل على أن تجعل اللذة أمة لنفسك تأخذ منها ما استطعت دون أن تأسف عليها اذا حيل بينك وبينها ودون أن تضحي في سبيلها بانسانيتك . ولست في حاجة الى أن أذكرك بما كان لهذه المدرسة من التأثير في الحياة القديمة فانت تعلم أن مذهبين خلقيين كانا يتنازعان حياة القدماء احدهما مذهب الزهد الذي أعلنه الكلبيون بعد سقراط وبالغ فيه الرواقيون بعد ارسطاطاليس ، والثاني مذهب اللذة الذي أعلنه « ارستيب » بعد سقراط وبالغ فيه « ابيوقور » Epicure) بعد ارسطاطاليس

أما المدرسة الثالثة فهي أبقى المدارس التي نشأت عن فلسفة سقراط وأبعدها أثراً في الحياة الانسانية وأعظمها حظاً من الخلود ، أثرت في العالم القديم وأثرت في القرون الوسطى وأثرت في العالم الحديث وما زال لها انصارها وتلاميذها الى اليوم والى ما بعد اليوم

ولكني لا احدثك عنها في هذا الفصل فهي تحتاج الى فصل خاص لانها انشأت لنا رجلين من قادة الفكر الانساني العام احدهما « افلاطون » والثاني « ارسطاطاليس »

افلاطون



افلاطون

١ ـ كان سقراط قد نيف على الخمسين حين وُلد أفلاطون سنة ٤٢٨ قبل المسيح ، فكان أثر الحوادث التي امتلأ بها الثلث الاخير للقرن الخامس مختلفاً في نفس الشيخ المجرب سقراط وفي نفس الشاب الحدث أفلاطون . بينما كان الشيخ ينظر الى هذه الحوادث نظرة الفاهم لها الذي لا يخفى عليه من أسبابها ونتائجها شيء كان هذا الشاب ينظر الى هذه الحوادث نظر المرتاع لها الذي لا يكاد يفهمها ولا يقدرها ، ولعل هذا الاختلاف في النظر الى الحوادث وفهمها والحكم عليها ظاهرة مطردة في تاريخ الانسانية كلها على اختلاف أجيالها وبيئاتها . فالانسانية منقسمة أبداً الى الشيوخ والشبان ونظر الشيوخ مخالف لنظر الشبان وأثر الحادثة المعينة في نفس الشيخ غيره في نفس الشاب ، ومن هنا كان الاختلاف بين الأجيال ، ومن هنا كان تطور الانسانية المطرد . غير أن

الحوادث تختلف قوة وضعفاً فمنها ما هو هول كله ومنها ما هو لين كله . ونفوس الشيوخ والشبان تختلف اختلافاً شديداً فمنها الممتاز ومنها العادي ، فاذا اجتمعت الاحداث التي ليست في أنفسها الأهوالاً ، واذا قضت المصادفة أن توجد بازاء هذه الاحداث نفوس ممتازة راقية في حسها أو فهمها أو حكمها كان من المعقول جداً أن يوجد الفيلسوف أو أن يوجد الرجل العظيم ، وكان من المعقول جداً أن يظهر الاختلاف بين الناس في فهمهم للأشياء وحكمهم عليها . وقد أرادت المصادفة أن تجتمع في هذا العصر الذي كان أفلاطون يستقبل فيه الحياة وسقراط يستقبل فيه الموت أحداث عظيمة خطيرة لم تعهدها الانسانية من قبل، وأقول الانسانية واستعمل هذا اللفظ العام على عمومه متعمداً ، فقد اعتادت الانسانية الحروب وتعرضت للأهوال وتجشمت الخطوب منذ عرفت الحياة المنظمة ، ولكنها لم تكن قد عرفت حرباً ولا تعرضت لهول ولا تجشمت خطباً كتلك الحرب وتلك الأهوال والخطوب التي تعرضت لها في آخر القرن الخامس قبل المسيح

الأمر في تلك الحرب كالأمر في الحرب العظمى التي لم ننسها بعد والتي لا نخطىء ان قلنا أن الانسانية لم تعرف حرباً تعدلها هولاً وفظاعة . فاذا أردنا ان نعلل هذا فتعليله يسير وهو ان العالم كان قد انتهى في سنة ١٩١٤ الى حد من الرقي غير مألوف وان الحرب استفادت من رقي العالم فاضافت الى أهوالها المألوفة أهوالاً لم يكن للناس بها عهد من قبل . كذلك الحال في تلك الحرب التي اضطرب

لها العالم القديم في آخر القرن الخامس قبل المسيح والتي شبت نارها حين كان الانسان قد انتهى من الحضارة والعلم والقوة الى حدود بعيدة جعلت هذه الحرب بدعاً من الحروب التي سبقتها

انت تعلم ان هـذه الحرب هي التي يعرفها التاريخ باسم حرب « بيلوبونيسوس » (Péloponèse) ولست في حاجة الى ان أصف لك أهوالها أو ألمّ بشيء من آثارها المنكرة في حياة العالم القديم، فقد تستطيع أن تظفر بمـا شئت من ذلك في كتب التاريخ ولا سيما في كتاب « توسيديد » (Thucydide) الآثيني الذي اشـترك في هذه الحرب وكتب في تاريخها كتاباً هو آية من آيات الفن القديم . نشبت هذه الحرب بين اثينا واسبرطا في نحو العصر الذي وُلد فيه أفلاطون ولم تلبث أن اشتملت بلاد اليونان جميعاً ، ثم لم تلبث أن تجاوزت بلاد اليونان الحقيقية الى المستعمرات اليونانية في آسـيا الصغرى وفي ايطاليا وصقلية ، ثم لم تلبث أن تجاوزت العالم اليوناني الى العالم الشرقي فتدخلت فيها الفرس ، ثم تدخلت فيها أمم اخرى غير الفرس إما خاضعة لأمر الفرس وإما محالفة للفرس وإما مناوئة للفرس ، وعلى هـذا النحو انتهت هذه الحرب الى أن أحدثت اضطراباً عالمياً أخذت كل الشـعوب الحية يومئذ منه بحظ ، ولم تدم سنة أوسنتين وانما اتصلت ربع قرن، ولم تقتصر آثارها على ازهاق النفوس وسفك الدماء وتدمير المدن وازالة السلطان وتبديد ألوان الثروة ، وإنما كانت لها آثار اخرى أبعد من هذه الآثار وأشـد

عملاً في الحياة الانسانية ، أريد بها الآثار العقلية والسياسية والاجتماعية، فقد أظهرت هذه الحرب فساد القديم من أكثر وجوهه وضرورة العدول عنه الى شيء آخر ، وأظهرت ضعف ما كانت تقوم عليه الجماعات المختلفة من اسس ونظم وعقائد ، واضطرت الانسان الى أن يبحث عن اسس اخرى ونظم اخرى يقيم عليها الاجتماع الجديد

اشترك سقراط في هذه الحرب فأدى واجبه كما كان يؤديه كل آثيني ولكنه كان شيخاً وأكبر الظن أنه لم يقدّر خطر هذه الحرب ولم يحاول التعمق في درس آثارها في الحياة الانسانية المقبلة، انما كان منصرفاً عن ذلك الى فلسفته التي قدمنا تلخيصها في الفصل الماضي . واشترك أفلاطون في هذه الحرب فأدى واجبه كغيره من الآثينيين أيضاً ولكنه لم يكن كسقراط معنياً بفلسفته ومهمته التي كلفه اياها « ابولون » (Apollon) فلم تكن له فلسفة ولم يكن « ابولون » قد عهد اليه بشيء وانما نشأ في هذه الحرب طفلا ثم شب فاذا الحرب ما زالت قائمة واذا هو مضطر الى أن يأخذ بنصيبه منها . وقد قلنا ان هذه الحرب عبثت بالنظم المختلفة عبثاً شديداً ويكفي أن نلاحظ أنها أدركت اثينا وهي خاضعة للنظام الديمقراطي المتطرف، فما زالت بها حتى عدلت عن نظامها الديمقراطي الى نظام ارستقراطي ثم الى نظام ديمقراطي معتدل ثم الى نظام ارستقراطي يشبه الطغيان أو هو الطغيان ، ثم انتهت بسقوط اثينا ونزولها عن كل ما كان لها من سلطان في البر والبحر ، ثم انتهت بها الى

نظامها الديمقراطي القديم . وكل هذه الاضطرابات والثورات لم تقع دون سفك للدماء وعبث بالأرواح والأموال داخل المدينة مع ما كانت تسفك الحرب من دماء وتزهق من أرواح وتبدد من أموال خارج المدينة . أضف الى هذا كله شيئاً آخر خاصاً بأفلاطون وهو أنه كان ارستقراطي المولد ، كان ينتهي من جهة امه الى « سولون » (Solon) وكانت اسرة أبيه تزعم أنها تنتهي الى « كودروس » (Codros) آخر ملوك آثينا ، فليس غريباً أن يكون أفلاطون بحكم مولده الارستقراطي ونشأته الارستقراطية وبحكم هذه الاضطرابات المختلفة شديد الميل الى النظام الارستقراطي شديد النفور من النظام الديمقراطي . ولكن النظام الارستقراطي الذي كان يميل اليه أفلاطون قد اقترف في اثينا ضروباً من الآثام لا سبيل الى انكارها فانصرف عنه أفلاطون كما كان منصرفاً عن النظام الديمقراطي ولبث في شيء من الحيرة غير قليل يلتمس النظام الذي يلائم الحياة الانسانية حقاً ويبرأ من الآثام حقاً . ولما بلغ أفلاطون العشرين اتصل بسقراط فلزمه ثمانية أعوام أو تسعة ولم يكن سقراط أقل منه بغضاً للديمقراطية ولم يكن سقراط أقل منه انصرافاً عن الارستقراطية . وهنا نستطيع أن نلاحظ مسرعين أن الفلسفة اليونانية كانت أبداً في حرب متصلة مع الديمقراطية كما أنها كانت شديدة الكره للنظام الارستقراطي الذي كان معروفاً حينئذ. وكان سخطها على هذين النظامين يحملها على أن تبحث عن نظام سياسي يبرأ من رذائلهما وآثامهما فاتفقت ميول أفلاطون وميول

سقراط السياسية . ثم لم تتفق ميولهما السياسية وحدها وانما اتفقا في أشياء كثيرة اخرى ، اتفقا في كره هذا الاضطراب العام الذي تناول كل شيء وأفسد كل شيء ، واتفقا في كره السوفسطائية الذين لم يكونوا يهيئون لحياة جديدة بريئة من الاضطراب وانما كانوا يذيعون الشك ويؤيدون المنفعة الخاصة ، ومن ذكر الشك والمنفعة الخاصة فقد ذكر الاضطراب . واتفقا في الحكم على المذاهب الفلسفية القديمة بالضعف أو الفساد أو العجز عن السيطرة على العقول والاشراف على الحياة الفكرية العامة ، واتفقا أيضاً في الحكم على الشعر القديم وأثره السيء من نفوس الجمهور، ثم اتفقا في الحكم على أن الديانة الموروثة لا تخلو من سخف وسذاجة يخالفان كل المخالفة ما وصل اليه العقل اليوناني من الرقي . ومن هنا اشتدت الصلة بين الفيلسوف الشيخ وتلميذه الشاب حتى اذا انتهى القرن الخامس وكانت قضية سقراط ثم القضاء عليه ثم موته اشتد سخط أفلاطون على اثينا وعلى النظام الديمقراطي فيها واشتد خوفه من اثينا ونظامها الديمقراطي فهاجر فيمن هاجر من تلاميذ سقراط ولجأ في أول الأمر الى مدينة « مجار » (Mégare) القريبة من اثينا وعاش فيها حيناً مع صديق له كان تلميذاً لسقراط ثم أسس في هذه المدينة احدى المدارس السقراطية المشهورة ، وهو اوقليدس (Euclide) الذي قد نعرض له في هذا الفصل ، ثم ترك أفلاطون مدينة « مجار » وابتدأ سياحة طويلة زار فيها آسيا الصغرى ومصر وبرقة ولست في حاجة الى أن ألفتك الى تأثير هذه السياحة في نفس أفلاطون ولكني

مضطر الى أن أذكر أن زيارته لمصر تركت في نفسه من غير شك آثاراً قوية فقد شاهد في هـذه البلاد آثار تلك الحضارة الضخمة التي كان يتحدث بها اليونان في اعجاب لا حد له وليس من شك في أن أفلاطون حاول أن يفهم هذه الحضارة بعض الشيء ولكن ليس من شك أيضاً في أنه لم يفهم منها الا شيئاً قليلا اذ لم يكن يعرف اللغة المصرية ولم يكن يستطيع أن يتحدث الى المصريين مباشرة وانما عرف ما عرف من أمر مصر بواسطة اليونان الذين تقيهم فيها شأن المؤرخ اليوناني (هيرودوت) . ومن هنا نستطيع أن نقول ان الحضارة المصرية لم تؤثر في فلسفة أفلاطون تأثيراً مباشراً وان من الاسراف والغلو ما يقال من انه كان تلميذاً للمصريين . ثم لم تنته سياحة أفلاطون عند زيارة آسيا الصغرى ومصر وبرقة بل زار ايطاليا اليونانية وزار صقلية وكان له فيها شأن سنلم به بعد قليل

اشرنا في أول هذا الفصل الى تلك الحرب التي اضطربت لها الحياة العالمية في طفولة أفلاطون وشبابه ولا بد من أن نشير هنا الى الحال السياسية في القرن الرابع قبل المسيح فقد كان لهذه الحال في حياة أفلاطون وفلسفته تأثير ليس أقل من تأثير الحال السياسية في القرن الخامس . كان هـذا القرن الرابع عصر انحطاط وانحلال في الحياة العامة كلها سواء في ذلك البلاد اليونانية والبلاد الفارسية فبينما كانت الخصومة السياسية بين الأحزاب قد انتهت الى أقصاها في داخل المدن اليونانية كانت الخصومة السياسية العسكرية قد

انتهت الى أقصاها بين المدن اليونانية وكذلك كانت المدن منشقة مضطربة في حياتها الداخلية يمزق بعضها بعضاً وينفي الحزب المنتصر أفراد الحزب المنهزم أو يقتلهم ثم لا يدوم له الانتصار إلا حيناً قصيراً فاذا انتصر الحزب المغلوب ثأر لنفسه. وكانت الحياة السياسية الدولية ان صح هذا التعبير أشد فساداً من الحياة السياسية الداخلية فكانت السيطرة متنقلة في المدن وكانت هذه المدن تتنازع السلطان فكانت السيادة (لاسبرطا) (Sparte) حيناً (ولطيبة) (Thèbes) حيناً آخر وكانت اثينا مترددة بين هاتين المدينتين تنتهز الفرص وتتربص الدوائر، وكان الشعور بالكرامة اليونانية والواجب الوطني قد فسد أو انمحى فلم يكن اليونان أفراداً وجماعات يترددون في اقتراف الخيانة العظمى ولم يكن الفرد يكره أن يضحي بمدينته في سبيل منفعته الخاصة ولم تكن المدينة تكره أن تضحي بالأمة اليونانية كلها في سبيل منفعتها الخاصة. ومن هنا كان تدخل الامة الفارسية في امور اليونان وانتهى هذا التدخل الى أن أصبح ملك الفرس مسيطراً على الحياة اليونانية الداخلية والخارجية يشهر الحرب بين المدن حتى اذا أضعفها اضطرها الى الصلح وفرض عليها شروطه وقواعده. غير أن الأمة الفارسية نفسها لم تكن أحسن حالا من الأمة اليونانية فقد كان الفساد قد عبث بها وتغلغل في طبقاتها حتى عجزت عن الاحتفاظ بملكها وسلطانها ولجأت الى اليونان تستأجرهم لحماية هذا الملك والسلطان ولاخضاع الأقاليم التي اخذت تضطرب وتثور وتنفصل عن الامبراطورية. وعلى هذا النحو زال التوازن

الذي كانت تقوم عليه الحياة السياسية في العالم القديم والذي كان يعتمد على قوة اليونان في الغرب وقوة الفرس في الشرق ، زال هـذا التوازن فضعف اليونان وضعف الفرس واخذ كل من الفريقين يلجأ الى صاحبه ويسخر منه . أخذ الفرس يلجأون الى اليونان وأخذ اليونان يلجأون الى الفرس ، اولئك يبذلون المال وهؤلاء يبذلون الرجال ، وظهر في ذلك الوقت أن النظم السياسية القديمة كلها قد فشلت فشلاً تاماً ففشل النظام الديمقراطي والارستقراطي في بلاد اليونان وفشل نظام الملـكيـة الفردية في بلاد الفرس وفي الشرق كله وترددت الانسانية بين اثنتين ، اما الدمار والفناء وأما نظام سياسي جديد يخرجها من هذه الفوضى . كذلك كانت الحال في بلاد اليونان وفي الشرق ولم تكن الحال في ايطاليا وصقلية خيراً منها في بلاد اليونان الحقيقية وفي فارس ، فقد كانت المدن اليونانية في ايطاليا وصقلية مضطربة في داخلها مختصمة فيما بينها وكان عبث الاحزاب بها شديداً ، ومع ذلك فقد خيل الى افلاطون أن هـذه المدن اليونانية في ايطاليا وصقلية قد تكون خيراً من المدن اليونانية الحقيقية فهاجر اليها واستفاد من هـذه المهاجرة فائدتين عظيمتين كان لهما أثر عظيم جداً في حياته الفلسفية النظرية والعملية . ذلك انه درس في هذه المدن مذاهب الفلاسفة القدماء الذين نشأوا في ايطاليا ولا سيما مذهب « الفيثاغوريين » (Pythagoricien) الذي كان يجمع بين الفلسفة النظرية والعملية وكان يزعم لنفسه القدرة على تدبير المدن تدبيراً يلائم المنفعة الحقيقية وكان منتصراً في بعض

المدن متسلطاً على الحياة السياسية فيها . ثم زار في صقلية مدينة « سراقوسا » (Syracuse) وكانت حينئذ عظيمة البأس واسعة السلطان وكانت خاضعة لنظام الطغيان يشرف عليها طاغية قوي يقال له « دنيس » (Denys) وكان بالقرب من هذا الطاغية رجل حكيم فيلسوف يقال له « ديون » (Dion) كان صديقاً لافلاطون شاركه في اهوائه السياسية فخيل اليه أنهما يستطيعان ان يؤثرا في الطاغية ويحملاه على نوع من الحكم يلائم المثل الاعلى الذي كانا يطمحان اليه . ولكنهما لم يكادا يقدمان الى الطاغية نصائحهما ويظهرانه على آرائهما حتى نفر منهما وسخط عليهما ويقال انه باع افلاطون كما يباع الرقيق

عاد أفلاطون الى أثينا وكانت قد نسيت سقراط واعرضت عن تلاميذه فاستطاع أن يستقر فيها وأن ينشيء فيها مدرسة هي الاكاذيمية (Acadêmie) . على أنه لم يطل المقام في أثينا بل عاد الى صقلية ، ذلك لان الطاغية الذي كان مشرفاً على « سراقوسا » قد مات وآل الامر الى ابنه من بعده فخيل الى الصديقين الحكيمين أن هذا الطاغية الشاب سيكون اسمع لهما واطوع من أبيه ؛ ولكن الشاب لم يكن أقل من أبيه حرصاً على الطغيان ونفوراً من حكمة الحكماء فغضب على الفيلسوفين واضطرهما الى الهرب وعاد افلاطون الى أثينا ، ثم ارتحل مرة ثالثة الى صقلية وحاول في هذه المرة لا أن يؤثر في الطاغية بل أن يصلح بينه وبين صديقه «ديون» على أنه فشل في هذا أيضاً ولم ينج من سخط الطاغية الا بمشقة .

عاد الى أثينا وقد ذهبت تلك الآمال التي كانت تبسم له وتضيء حياته وتخيل اليه انه يستطيع أن يقر المدنية الفاضلة على الارض فاستقر فيها وانقطع الى مدرسته وأخذ يعلم حتى مات سنة ٣٤٧

٢ ـ عسير جداً درس فلسفة سقراط لان سقراط لم يكتب شيئاً ، وعسير جداً درس فلسفة افلاطون لان افلاطون كتب كثيراً ولان فهم هذه الكتب التي تركها افلاطون وبقيت كلها وهي تنيف على الثلاثين ليس بالأمر اليسير . ليس بالأمر اليسير لان هناك ضروباً من التناقض بين هذه الكتب من جهة ولان آراء الفيلسوف في بعض المسائل قد بلغت من الغموض والدقة حداً عظيماً جداً ، ثم لأن هذا التناقض يمكن تفسيره وازالته لو استطعنا أن نتبين التاريخ الذي كتبت فيه هذه الكتب بحيث نستطيع ان نقول ان هذا الرأي قد جاء بعد هذا الرأي فهو يدل على أن الفيلسوف قد تطور وغير من آرائه قليلا أو كثيراً . ولكن من العسير جداً أو قل من المستحيل تحديد التواريخ التي كتبت فيها آثار افلاطون . ونحن نعلم ان افلاطون قد بدأ الكتابة منذ مات سقراط أي في أول القرن الرابع وظل يكتب ويعلم الى أن مات أي في أول النصف الثاني من هذا القرن ، وليس غريباً ان تتطور آراء الفيلسوف وتتغير في خمسين سنة ولا سيما اذا لم يكن الفيلسوف قد لزم حياة هادئة مطمئنة. فليس اذن سبيل الى الشك في ان فلسفة افلاطون قد تغيرت وخضعت لالوان من التطور يمكن تحديدها لو ظفرنا بالتاريخ الذي كتبت فيه الكتب الافلاطونية . ومن هنا اجتهد العلماء المحدثون

فى البحث عن هذه التواريخ وسلكوا الى ذلك سبلاً مختلفة فمنهم من حاول ترتيب الكتب الافلاطونية ترتيباً منطقياً ومنهم من حاول ان يؤرخ كل كتاب بما يجد فيه أو بما يمكن ان يجد فيه من الأسماء والتعريض بالحوادث التاريخية ولكن كتباً كثيرة لافلاطون تخلو من هذه الحوادث ومن هذه الاسماء ، وآخر ما اهتدى اليه الباحثون في هذا النحو هو الطريقة اللغوية وهي التي تمكن من تحديد التاريخ الذي ظهر فيه الكتاب بواسطة لغة الكتاب نفسه ، ذلك ان لغة الكاتب تتطور كما تتطور آراؤه فاذا استطعنا ان نعين لغة افلاطون في شبابه ثم في كهولته ثم في شيخوخته فقد استطعنا ان نؤرخ كتبه . ويظهر أن هذه الطريقة هي أقوم الطرق ويقول النقاد والمؤرخون المحدثون أنها قد انتهت بهم الى نتائج قيمة وينتظر ان تنتهي بهم الى تحديد هذه التواريخ على وجه التقريب . ومهما يكن من شيء فلم يعرف العالم القديم قبل افلاطون فلسفة بلغت من السعة والعمق والتفصيل ما بلغته فلسفة افلاطون . فقد كان الفلاسفة القدماء يحاولون فهم الكون وتفسيره ويجدون في ذلك حتى يحدثوا مذهباً من المذاهب يزعمون أنه يفسر الوجود والموجود ثم يقنعون بهذا المذهب فيعلمونه ويؤيدونه ويذودون عنه ، ثم جاء عصر الشك الذي أنكر هذه المذاهب جملة ، ثم جاء سقراط فحاول شيئاً آخر غير ما حاوله الفلاسفة القدماء وهو جعل الانسان نفسه موضوعاً للفلسفة مكان الكون والكائنات أو مكان الوجود والموجود . ولكن سقراط لم يتجاوز أو لم يكد يتجاوز هذه النظرية التي تجعل الانسان

موضوعاً للفلسفة وتجعل معرفة الانسان نفسه شرطاً ومصدراً لمعرفة الكون والكائنات . ثم جاء تلاميذ سقراط فكلهم احتفظ بالنظام الفلسفي القديم فأسس مذهباً بعينه وأخذ يعلمه ويؤيده ويذود عنه ، وكل ما تمتاز به فلسفة هؤلاء التلاميذ من الفلسفة التي تقدمت سقراط هو أنهم انصرفوا عن الكون والكائنات وعن الوجود والموجودات الى الانسان .. فاتخذوه موضوعاً لفلسفتهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة الى رقيه وسعادته فمنهم من وجد ذلك في اللذة ومنهم من وجد ذلك في الزهد . أما افلاطون فانه خالف الفلاسفة الذين تقدموا سقراط ، وخالف سقراط نفسه وخالف تلاميذ سقراط أيضاً واستحدث في الفلسفة بدعاً لم يكن مألوفاً من قبل . فلم يتخذ الكون موضوعاً للفلسفة ولم يتخذ الانسان موضوعا لها وانما اتخذ الكون والانسان جميعاً موضوعاً لمباحثه الفلسفية . ثم لم يتخذهما موضوعاً لبحث فلسفي خاص ينشئه هو ويقصر عليه عنايته وحياته ويطبعه بطابعه الخاص وانما حاول شيئاً أعظم من هذا كله ووفق اليه توفيقاً غريباً . حاول شيئاً لم يكن قد حاوله أحد من قبل وهو درس هذه المذاهب الفلسفية الكثيرة المختلفة ومقارنتها واستخلاص ما فيها جميعاً من خير وإقامة فلسفة جديدة من جهة وقديمة من جهة أخرى . جديدة لأن الناس لم يألفوها وقديمة لأنها لم تنشأ من لا شيء وانما تعتمد على المذاهب الفلسفية كلها . وفي الحق أنك تجد في فلسفة افلاطون شيئاً من كل المذاهب الفلسفية التي سبقته ، تجد فيها شيئاً من مذهب الاستحالة ، وتجد فيها شيئاً من مذهب الوحدة ، وتجد فيها فلسفة

سقراط ، وتجد فيها خلاصة آراء السقراطية ثم تجد فيهـا الفلسفة « الفيثاغورية » ثم تجد فيها أشياء أخرى منها ما يرجع الى الدين ومنها ما يرجع الى الادب ومنها ما يرجع الى شخصية افلاطون نفسه وكل ذلك متسق منسجم لا يظهر فيه الاختلاف ولا التباين وانما هو مطبوع بهذا الطابع القوي الذي يمثل شخصية افلاطون

٣ ـ ومن أي ناحية نستطيع ان ندرس افلاطون ؟ بل من أي ناحية يجب ان ندرس افلاطون ؟ فنحن نجد في افلاطون شخصيات مختلفة كلها خليق بالدرس محبب الى الباحث . نستطيع ان ندرس افلاطون من حيث أنه كاتب فنحن نعلم ان تاريخ الادب اليوناني لم يعرف كاتباً ناثراً كافلاطون وان آثار افلاطون كلهـا آيات لا بالقياس الى الادب اليوناني وحده بل بالقياس الى الادب الانساني كله سواء منه القديم والحديث . ونحن نعلم ان كل انسان مهما يكن حظه من الرقي العقلي ومهما تكن جنسيته وحضارته يستطيع اذا قرأ افلاطون ان يجد فيه لذة لا تعدلها لذة ولا يشعر بها الانسان الا حين يقرأ آيات البيان . ثم نستطيع ان ندرس افلاطون من ناحية أخرى غـير ناحية الـكتابة والنثر هي ناحية الشعر والخيال ، فلم ينظم افلاطون الشعر على قواعد العروض والقافية ولـكنه كان شاعراً في نثره ولا يعرف تاريخ الادب القديم شاعراً كان له من قوة الخيال ولطفه وسحره وسلطانه على النفوس مثل افلاطون . ثم نستطيع ان ندرس افلاطون من ناحية ثالثة هي ناحية الفيلسوف الذي يبحث عما بعد الطبيعة فيتعمق في بحثه تعمقاً لم يسبق اليه واخشى ان أقول

لم يلحق فيه ، بل استطيع ان أقول ذلك بشرط ان استثني تلميذه « ارسطاطاليس » . ثم هناك ناحية رابعة نستطيع ان ندرس منها افلاطون وهي ناحية الفيلسوف الخلقي الذي يؤسس علم الاخلاق لا على مبادىء سقراط وحدها بل عليها وعلى مبادىء أخرى استطاع هو ان يستكشفها أثناء بحثه عن الطبيعة وعما بعد الطبيعة . ثم هناك ناحية خامسة نستطيع ان ندرس منها افلاطون وهي ناحية الفيلسوف السياسي الذي وضع علم السياسة وحاول لا ان يتفهم الحياة السياسية فحسب بل ان يضع نظاماً سياسياً يعتقد هو أنه المثل الاعلى للانسانية المنظمة. ثم هناك ناحية سادسة نستطيع ان ندرس منها افلاطون وهي ناحية الفيلسوف النفسي الذي هوّن الأمر على ارسطاطاليس وغير ارسطاطاليس من الذين عنوا بالمنطق ووضع علماً جديداً يبحث عن المعرفة وشروطها ونظمها وغايتها فوضع أساس المنطق وأساس علم النفس أو قل وضع اساس الفلسفة كلها . نستطيع ان ندرس افلاطون من كل هذه النواحي ولكنك تستطيع ان تطمئن فلن ادرس افلاطون في هذا البحث من كل هذه النواحي فمثل هذا الدرس يحتاج الى كتاب ضخم لست أنا الذي يستطيع ان يضعه . انما أريد أن اوجز لك أشد ايجاز خلاصة من الفلسفة الافلاطونية التي كان لها الاثر العظيم جداً في قيادة الفكر الانساني قديماً وحديثاً

٤ — ولا بد قبل كل شيء من ان نشير الى المذهب الافلاطوني في كتابة الفلسفة ودرسها . وهذا المذهب في نفسه هو مذهب سقراط أي أنه يعتمد قبل كل شيء على الحوار ، واذن فهو

في قسه غير جديد . ولكن لا تنس ان سقراط كان يحاور محاورة لسانية أي أنه كان يناقش أصحابه وتلاميذه بالفعل . أما افلاطون فلم يكن يحاور حواراً لسانياً وانما كان يكتب والفرق عظيم بين رجل يلقاك فيحاورك وبين رجل لا يلقاك ولا يحاورك بالفعل وانما يستوحي قلمه حواراً بديعاً تخيل أشخاصه واخترع موضوعه اختراعاً . كان سقراط متحدثاً ، أما افلاطون فمؤلف منشىء . ومن هنا كان من الحق الاعتراف لافلاطون بفضيلة هذا الفن الفلسفي الادبي الذي لم يسبق اليه ولم يلحق فيه وهو فن الحوار . نعم ، ان افلاطون لم يخترع الحوار اختراعاً وانما تأثر فيه بمؤثرين مختلفين نذكرهما لنلفتك الى الصلة بين الفلسفة والادب : الاول فن التمثيل الذي بلغ أقصى ما كان ينتظر له من الرقي في القرن الخامس وأثر في حياة الآثينيين خاصة واليونان عامة تأثيراً لا حد له . هـذا الفن يعتمد على الحوار سواء في ذلك قصصه المحزنة والمضحكة . وهو بهـذا الاسلوب أسلوب الحوار قد استطاع ان يؤثر في الجمهور ويبلغ من نفسه ما كان يريد ، فليس عجيباً ان يفتن الناس بالحوار ويتخذوه أسلوباً من أساليبهم الادبية ونستطيع ان نقول ان كتب افلاطون كلها أو أكثرها قصص تمثيلية فلسفية . فكتب افلاطون كلها أو أكثرها عبارة عن مجلس من المجالس يجتمع فيه الناس حول سقراط فيتحدثون وينتهي بهم الحديث الى موضوع من الموضوعات ذات الخطر فيتحاورون فيه ويشرف سقراط على هـذا الحوار وما يزال باصحابه وتلاميـذه ينقلهم من موضوع الى موضوع ومن مسألة الى

مسألة ومن صعوبة الى صعوبة حتى ينتهي بهم الى النتيجة الفلسفية التي كان يريد اثباتها. وكل هذه الكتب أو أكثرها لا تتخذ اسماءها من الموضوعات التي تدرس فيها وانما تسمى باسماء الأشخاص الذين لهم في الحوار منزلة خاصة ؛ فهناك « فيدون » (Phédon) و « بروتاجوراس » (Protagoras) و« جورجياس » (Gorgias) و« ألسبياد » (Alcibiade) وغيرها من الكتب التي تسمى باسماء الاشخاص وقليلة جداً تلك الكتب التي تسمى باسماء الموضوعات كالجمهورية والقوانين وغيرهما . المؤثر الثاني الشعر وأريد الشعر الغنائي الذي تعمق في البحث عن العواطف الانسانية حتى اهتدى الى دقائقها وارتقى في تشخيص هذه العواطف وتمثيلها حتى بلغ من العظمة حداً ربما لم يبلغه الشعر الحديث . وقد يكون من الحق ان لا ننسى الشعر القصصي الذي اعتمد عليه افلاطون في هذه الاساطير المنبثة في كتبه والتي يستعين بها على تفسير النظريات الفلسفية وتقريبها . فانت ترى ان افلاطون لم يخترع فنه الادبي اختراعاً وانما تأثر فيه بألوان الشعر الثلاثة كما أنه لم يخترع فلسفته اختراعا وانما تأثر فيها بالمذاهب الفلسفية المختلفة التي سبقته وعاصرته ، ولكن تأثره بالشعر والفلسفة لم يضطره الى التقليد ولم يضعف من شخصيته وانما قوى هذه الشخصية تقوية عظيمة. وأين هو هذا النابغة الذي يخترع شيئاً من لا شيء ويحدث أحداثاً لا تتصل بما قبلها ولا تتأثر بما حولها ؟ وسنرى ان افلاطون نفسه لم يستطع ان يتصور الهاً يوجد شيئاً من لا شيء

٥ — كانت فلسفة سقراط حرباً على السوفسطائية وكذلك كانت فلسفة أفلاطون . فان انتصار سقراط على السوفسطائيين لم يزل سلطانهم ولم يمح آثارهم بل نستطيع أن نقول أن كثيراً من السوفسطائيين اتخذوا الفلسفة السقراطية وسيلة الى تقوية مذهبهم والامعان فيما كانوا فيه من شك وتشكيك ولعل هذا هو الذي يفسر لنا وجود هذه المدارس السقراطية المتناقضة فيما بينها والتي انبثت في اقطار الارض . فلم يكن اذن بد لافلاطون من أن ينهب مذهب استاذه في محاربة السوفسطائية واقامة فلسفة جديدة تعتمد على أن الحقائق ثابتة وعلى أن الشك ضرب من الضعف لا خير فيه ولا غناء . وقد سلك أفلاطون الى تأسيس هذه الفلسفة سبيلا واضحة قيمة ولكن سلوكها ليس باليسير على غير الفيلسوف . كان سقراط يقول (اعرف نفسك بنفسك) وكان يرى ان أول العلم هو أن يعلم الانسان جهله بكل شيء . ثم كان سقراط يرى ان الانسان متى علم جهله بكل شيء وحاول أن يعرف نفسه بنفسه استكشف في هذه النفس كنزاً لا سبيل الى أن يقدر وذلك أن النفس عند سقراط ملئت بالحقائق وان بحث الفيلسوف عن هذه الحقائق ليس في حقيقة الامر اختراعاً لهذه الحقائق وانما هو استكشاف لها في أعماق النفس وقد اخذ افلاطون كل هذه النظريات السقراطية فنظمها وفصلها واستخرج منها كل ما كانت تشتمل عليه وجعلها اساساً لفلسفته . وفي الحق أن فلسفة افلاطون كلها تقوم على نظرية العلم والمعلوم . فالنفس عند افلاطون ملئت بالحقائق كما كانت عند

سقراط ولكن تفسير افلاطون يخالف تفسير سقراط مخالفة شديدة. كان سقراط يفهم أن الحقائق موجودة في النفس بالقوة وان البحث يجعل هذا الوجود فعلياً . اما افلاطون فيرى ان الحقائق موجودة في النفس بالفعل وان البحث عن الحقائق لا يؤدي الى انتزاعها فهي خالدة ولا يؤدي الى استكشافها فهي معلومة وانما يؤدي الى تذكرها . فالنفس قد نسيت الحقائق عند ما هبطت من الملأ الاعلى الى هذا العالم السفلي ، وكلما أمعنت النفس في هذه الحياة العملية وما تستتبعه من الخضوع لحاجات الجسم اشتد نسيانها للحقائق وتراكم عليها الصدأ ، وعمل البحث الفلسفي هو أن يزيل هذا الصدأ وأن يذكرها بما كانت تعلم من قبل . واذن فالحقائق كلها خالدة ثابتة لا تحدث ولا تتغير كما ان العلم بها خالد ثابت لا يحدث ولا يتغير . ومعنى هذا ان النفس الانسانية خالدة أيضاً لا تحدث ولا تتغير وانها قد مر عليها طور من الوجود كانت فيه بعيدة عن هذا العالم السفلي واعراضه وادرانه كانت ، فيه تحيا ناعمة راضية مجاورة للآلهة وللحقائق الخالدة مستمتعة بالعلم الذي يظهرها على كل شيء ويمثل فيها كل شيء . ثم هبطت من ذلك العالم العلوي الى هذا العالم السفلي فنسيت شيئاً فشيئاً ما كانت تعلم

هذا المذهب وحده غامض اذا لم يوضحه رأي أفلاطون في الكون والكائنات أو في الوجود والموجود . واذا أردنا أن نفهم هذا الرأي وجب ان نلاحظ انه خلاصة مذهبين فلسفيين مختلفين

احدهما مذهب الإستحالة الذي كان يذهب اليه « هيراقليت » (Héraclite) والذي كان يرى ان الاشياء كلها في استحالة متصلة وتغير لا ثبات له ولا استقرار . والثاني مذهب الوحدة الذي كان يذهب اليه « برمنيد » (Parménide) والذي كان يرى أن الكون كله منتهٍ الى شخصية واحدة ثابتة عنها يصدر كل شيء واليها ينتهي كل شيء أو هي كل شيء وليست هذه الكائنات والاحداث الا مظاهر لها . من هذين المذهبين استطاع افلاطون أن يكوّن منهباً جديداً بعد أن غير فيهما وبدل وأضاف اليهما مذاهب فلسفية اخرى . وانتهى الى أن هنالك درجات ثلاثاً في الوجود تقابلها درجات ثلاث في العالم : الدرجة الاولى درجة هذه الموجودات المحسوسة التي نلامسها ونتأثر بها ونؤثر فيها ، وهذه الموجودات متغيرة أبداً مستحيلة أبداً بل هي تغير واستحالة لا ثبات لها ولا استقرار . الدرجة الثانية درجة موجودات اخرى هي الواسطة بين المحسوسات وبين الدرجة الثالثة التي سنراها بعد حين وهذه الدرجة الثانية تمثل الصور الذهنية والحقائق العقلية التي تتمثل بها الكائنات والتي نتخذها وسيلة للحكم على المحسوسات وتسخيرها من جهة وللرقي الى الدرجة الثالثة من جهة أخرى . وهذه الدرجة الثالثة هي درجة الحقائق الثابتة الخالدة التي لا ينالها التغيير ولا تعرض لها الاستحالة والتي تؤثر ولا تتأثر والتي يسميها افلاطون بالافكار أو بالمثل . هذه الحقائق خالدة وجدت قبل كل شيء وستوجد بعد كل شيء وليس لشيء من المحسوسات وجود الا بها ،

صدرت عن الاله صدوراً ذاتياً ، صدور المعلول عن العلة ، ثم اتخذها الاله نموذجاً صاغ عليه عالم المحسوسات

وأنا اعتذر اليك من هذاء الغموض فقد أبذل ما استطيع من جهد للتوضيح دون أن ابلغ اكثر مما وصلت اليه الا أن أتجاوز ما شرطت من الايجاز والاختصار . وخلاصة القول أن افلاطون يرى في هذا العالم المحسوس طائفة من الظواهر التي لا وجود لها بنفسها وانما هي صادرة عن عالم آخر هو عالم الحقائق الخالدة . ومن هنا كانت درجات العلم ثلاثاً فكان هناك العلم بهذه المحسوسات أو بهذه الظواهر وهذا العلم هو احقر أنواع العلم . لانه ظن يتغير ويتبدل بتغير موضوعاته وتبدلها . وكان هناك علم آخر أرقى من هذا العلم الاول وهو العلم بالاشياء العامة التي تنتزعها النفس من هذه الشخصيات المتغيرة المتبدلة ، هو العلم بالاجناس والانواع ، هو العلم بالكليات والقضايا العامة التي ليست هي شخصيات متغيرة أو متبدلة ، وهذا العلم تكتسبه النفس اكتساباً بملاحظة المحسوسات ومقارنتها والتفريق بينها فهي تنتزع النوع الانساني من أفراد الانسان كما تنتزع جنس الحيوان من أنواع الحيوان وهلم جرا ... ثم كان هنالك علم آخر هو العلم حقاً وهو الفلسفة حقاً وهو اليقين حقاً . هذا العلم هو العلم بتلك الحقائق الثابتة التي قلنا أنها خالدة لا تتغير ولا تتبدل

ولست اريد أن أتعمق في تفصيل الصلة التي توجد بين هذه الدرجات الثلاث من الكائنات وبين هذه الدرجات الثلاث من

العلم فذلك كله يخروج بنا عما نريد من الايجاز . انما ألاحظ أن العلم بهذه الحقائق الثابتــة هو الغاية التي يسعى اليها الفيلسوف حقاً وانه لا يصل اليها الا بعد مشقة وجهد عنيف ولـكنه اذا وصل اليها فقد وصل الى الخير كله واستطاع أن يمتزج بمصدر المكون أو بالاله . وما الاله عند أفلاطون ؟ وكيف أوجد هذا العالم وأثر فيه ؟ الاله عنـد أفلاطون فكرة هي مصدر كل شيء ومرجع كل شيء . وهي فكرة الخير وجدت بنفسها قبل أن يوجد الزمان وهي موجودة مع الزمان وستوجد بعده لا علاقة لها به ولا تأثير له فيها وعنها صدرت كل الحقائق الخالدة ولـكن هذه الحقائق الخالدة ليست محسوسة ولا سبيل الى أن تحس ومهما يبلغ أفلاطون من اثباتها فلن يصل الى تفسير هذا العالم المحسوس . فكيف وجد هـذا العالم ؟ يرى أفلاطون أن الاله وحده لا يستطيع ايجاد هذا العالم بل أن هذه الحقائق لا تستطيع ايجاد هذا العالم واذن فلا بد من عنصر ثالث ليوجد هذا العالم وهذا العنصر الثالث هو المادة التي وجدت وحدها. والتي اتخذها الاله سبيلا الى ايجاد هذا العالم المحسوس

نظر الى الحقائق الخالدة التي صدرت عنه فاتخذها مثلا ونماذج صاغ عليها هذا العالم المحسوس ، ثم لاجل أن تنبعث الحياة في هذا العالم المحسوس أوجد الاله صلة بينه وبين هذه المثل فليس الانسان الموجود في الخارج الا مظهراً للحقيقة الثابتة الخالدة التي هي الانسانية وكذلك قل في جميع الموجودات الاخرى

وليس يعنينا أن نفصل هذه الصلات بين الحقائق الثابتــة

والعالم المحسوس ولا أن نصف هـذه الطرق الملتوية التي اتخذها أفلاطون ليبين كيف استطاع الاله ايجاد العالم وتدبيره . كل ذلك لا يعنينا الآن وانما الذي يعنينا هو أن نلاحظ أن هذه الفلسفة كان لها الاثر العظيم جداً في حياة العقل الانساني قديماً وحديثاً . فأثر المدرسة الافلاطونية القديمة وأثر المدرسة الافلاطونيـة الحديثة في العالم اليوناني والروماني أشهر من أن نحتاج الى ذكره ثم أثر المدرسة الافلاطونية التي انشئت في الاسكندرية ظاهر بيّن وحسبك أن الديانة المسيحية لم تخلص منه وحسبك أنه عمل في تكوين العقل الشرقي عملاً بعيد الاثر لم يتناول الطبقات الراقيـة وحدها بل تجاوزها الى غيرها من الطبقات الدنيا في العصور المختلفة . أما أثر هذه الفلسفة في الحياة الاوربية أثناء القرون الوسطى وفي هـذا العصر الحديث فاعظم وأبعد من أن نلم به في هذا الفصل ، ولعلك تعلم أن الفلسفة الافلاطونية ما زالت حية الى الآن وما زال لهـا ممثلوها والمدافعون عنها بين فلاسفة الغرب

٦ — على أن جزءاً آخر من فلسفة أفلاطون يستحق عناية خاصة لانه يمتاز بشيء من الخصب والغنـاء لم تظفر به الاجزاء الاخرى لفلسفته ، نريد به هذا الجزء الخلقي السياسي ، فشخصية أفلاطون فيه بارزة قوية خالدة مهما تختلف العصور وتتبدل الظروف وهذا الجزء من فلسفة أفلاطون متصل بالاجزاء الاخرى ليس منفصلا عنها ولا ممتازاً منها ، فقد رأيت أن الكون كله يدور حول نقطة واحدة عنها صدر واليها يرجع وهي فكرة الخير أو الاله ، واذا كانت

هذه الفكرة هي مصدر الكون ومرجعه وهي التي ينتهي اليها بحث الفيلسوف فينبغي أن تكون هذه الفكرة نفسها غاية الحياة العملية الانسانية أيضاً ، ينبغي أن تكون هي مصدر السعادة وينبغي أن تكون هي المثل الاعلى الذي يطمح اليه الانسان في حياته العملية كما أنها المثل الاعلى الذي ينتهي اليه في حياته النظرية . ذلك لان الاخلاق ليست عملاً عند افلاطون وانما هي علم ، أو قل ان أفلاطون لا يفرق في الاخلاق بين العلم والعمل . فهو يؤكد كما كان يؤكد سقراط أن مصدر ما تتورط فيه من الرذائل والآثام انما هو جهلنا بالخير وقصورنا عن ادراكه ، فاذا ازيل هذا الجهل واتيحت لنا القوة التي تمكننا من ادراك الخير ومشاهدته فنحن بمأمن من الرذائل والآثام ، وليس يستطيع أفلاطون كما لم يكن يستطيع سقراط أن يتصور أن الانسان يقدم على الشر وهو يعلم أنه شر وينصرف عن الخير وهو يعلم أنه خير . واذن فالفلسفة التي تؤدي الى ادراك فكرة الخير ليست مصدر السعادة النظرية العلميـة وحدها بل هي مصدر السعادة العملية أيضاً ، فالفيلسوف أسعد الناس لأنه يدرك الخير ويراه ، ثم لانه يسعى اليه ويطمع فيه وينظم حياته تنظيما يجعلها ملائمة له .

على أن أفلاطون لا يكتفي بهذا التفسير النظري الخالص وانما يحاول أن يفسر لنا مصدر هذا الجهل الذي يورطنا في الشر والاثم وتفسيره لهذا الجهل بديع قوي فيه شعر وفيه فلسفة معاً . فالنفس عند أفلاطون مزاج يتألف من قوى ثلاث ، احداها هـذه القوة

العاقلة التي تتفهم الاشياء وتتبينها وتنتقل من المحسوس الى المفهوم ومن المركب الى المجرد حتى تنتهي الى الحقائق الثابتة ثم الى حقيقة الحقائق أو فكرة الخير أو الاله . والثانية هذه القوة الغضبية التي وكل اليها الدفاع عن الحياة والاحتفاظ بها وهي التي نسميها الشجاعة وهي التي تحملنا على أن نغضب ونثور كلما احتجنا الى الغضب والثورة . والثالثة هذه القوة الشهوية التي تعنى بوجود الجسم المادي لانها تحمله على ارضاء شهواته المختلفة ، على الاكل والشرب وما يتصل بهما من أنواع اللذات . ولكل قوة من هذه القوى الثلاث مركزها في الجسم . فاما الاولى فمستقرها الرأس ، وأما الثانية فمستقرها الصدر ، وأما الثالثة فمستقرها البطن . والنفس عند أفلاطون تشبه عربة يقودها جوادان أصيلان أحدهما الغضب والآخر الشهوة ، أما سائق الجوادين فهو العقل . واذن فلا بد من أن يوجد بين هذين الجوادين توازن في القوة وتوافق فى الحركة من جهة ، ولا بد من أن يوجد بينهما وبين السائق توازن آخر يضطرهما الى الخضوع له والاذعان لأمره من جهة اخرى . فاذا اختل التوازن بين الجوادين أو بينهما وبين السائق فذلك مصدر الشر الذي نتورط فيه . قد تسرف القوة الغضبية حتى تسيطر على القوتين الاخريين واذن فنحن متهورون مندفعون وقد تسرف القوة الشهوية واذن فنحن عبيد اللذة وارقاؤها . وعلى هذا النحو يرى أفلاطون أن الفضيلة حقاً انما هي مزاج ينتج من التوازن بين هذه القوى بحيث يستطيع الجسم أن يحيا ويحتفظ بحياته دون أن

يحول بين النفس للعاقبة وبين الطموح الى الخير والسعي الى الوصول اليه

شيء آخر يتم نظرية افلاطون في الاخلاق ويعين على فهم هذه الشخصية القوية وعلى فهم ما كان لفلسفة أفلاطون من أثر بعيد في الحياة الانسانية وهو رأيه في العقوبة الخلقية . فليس يكفي أن يمثل لك الخير ويدعوك اليه بل ليس يكفي أن يمثل لك الشر ويحذرك منه وانما هو يرى أن العقوبة أمر محتوم لا منصرف عنه ولا مفر منه ، فلكل عمل جزاؤه له الثواب إن كان خيراً وله العقاب إن كان شراً ، تلك نتيجة محتومة للعدل وهي نتيجة طبيعية ليست متكلفة ولا مصطنعة ، ليست كهذه العقوبات التي تفرضها القوانين المكتوبة وإنما هي أقوى وأنفع وألزم من هذه العقوبات . يرى افلاطون أن هذه العقوبة ليست شراً وإنما هي الخير كل الخير، ذلك أنها لا ترمي الى الانتقام ولا الى التعذيب وإنما ترمي الى التصفية والتطهير . فالنفس الآثمة عند ما تعاقب تطهر من أدران الاثم وتعد لأن تستأنف حياتها الصالحة الراقية التي تلحقها بنفوس الاخيار وترقى بها إلى مستقرها الاول في الملأ الأعلى . أما تفصيل هذه العقوبات فجميل لا يخلو من لذة شعرية ولا من قوة خيالية مدهشة وحسبك أن مذهب التناسخ يختصر هذه العقوبات . فالنفس الآثمة بعد الموت تعود الى هذه الحياة لتمحو اثمها وهي تستقر في جسم من الاجسام يلائم نوع الأثم الذي اقترفته . كانت نفس رجل فهي الآن نفس إمرأة ، كانت نفس انسان فهي الآن نفس فرس

أو نفس كلب أو نفس حمار وهلم جرا . . . فأنت ترى أن النظرية الخلقية لافلاطون متصلة بنظريته في الطبيعة وفيما بعد الطبيعة . وليست نظريته السياسية بأقل اتصالا بفلسفته العامة من نظريته الخلقية . ذلك لأن رأيه السياسي يقوم على رأيه الخلقي . فالجماعة عنده كالفرد تتأثر بما يتأثر به وتخضع لما يخضع له ويجب أن تطمح الى ما يطمح اليه . واذا كان الفرد مكلفاً أن يطمح إلى العدل الذي يرقى به إلى المثل الاعلى وهو الخير فالجماعة مكلفة أن تطمح أيضاً إلى هذا العدل . وقد رأينا أن العدل بالقياس إلى الفرد هو التوازن بين قوى النفس الثلاث أو بين الانفس الثلاث كما يقول أفلاطون ، فكذلك العدل السياسي توازن بين الانفس الثلاث الاجتماعية أو السياسية . فللجماعة أنفس ثلاث كالفرد لها نفسها العاقلة وهي الحكومة التي تقوم منها مقام العقل من الفرد ولها نفسها الغضبية التي تحميها وتحفظ عليها قوامها في الداخل والخارج وهي الجيش ولها نفسها الشهوية التي تقدم اليها ما تحتاج اليه من أدوات الحياة وهي طبقة العمال والزراع ومن اليهم ، واذن فالحياة الاجتماعية السعيدة هي التي يتحقق فيها التوازن بين هذه الانفس الثلاث . وليس تحقيق هذا التوازن بالأمر اليسير كما أن تحقيق التوازن عند الفرد ليس بالامر اليسير أيضاً . ألست ترى أن الكثرة المطلقة من الافراد أشقياء ؟ ألست ترى أن كل المدن والدول القائمة إنما تخضع لألوان من الشقاء السياسي لا تكاد توصف ولا تحصى ؟ واذا لم يكن بد من أن يؤخذ الفرد بنوع خاص من التربية يمكنه

من أن يحقق التوازن بين أنفسه الثلاث فليس هناك بد من أن يؤخذ الأفراد بتربية سياسية تمكنهم من أن يكونوا المدينة الفاضلة التي يتحقق فيها التوازن بين الانفس الاجتماعية الثلاث . ولست أفصل لك قواعد التربيــة عند افلاطون فذلك شيء يطول ومن اليسير عليك أن تقرأه في الجمهورية فستجد في قراءته لذة لا تعدلها لذة . ولكني أجمل لك النتائج السياسية التى انتهى اليهـا افلاطون والتي كونت مدينته الفاضلة التي هي في الحقيقة مثل أعلى ليس الى تحقيقه من سبيل والتي ندهش نحن الآن لأن فيلسوفاً كأفلاطون تصورها وحاول أن يجعلها حقيقة واقعة . يريد افلاطون أن تتألف مدينته الفاضلة من هذه الطبقات الثلاث التي قدمنا الاشارة اليها ويريد أن تكون الطبقة الاولى التي تشرف على الحكم بمنزلة العقل من الفرد وكيف تكون هذه الطبقة بمنزلة العقل اذا لم تتألف من الفلاسفة. الفلاسفة وحدهم قادرون على تدبير الحياة الفردية والاجتماعية لأنهم وحدهم قادرون على تصـور الخير والوصول اليه ، وإذن فافلاطون عدو للديمقراطية التي تكل الحكم الى الناس جميعاً دون أن تفرق بين كفاياتهم وحظوظهم من القوى العقلية ، وهو عدو للارستقراطية التي تعتمد على المولد أو على الثروة والجاه . افلاطون ارسـتقراطي ولكن ارستقراطيته تعتمد على الفلسفة . ولا تبتسم ساخراً أو مزدرياً فما زال الفلاسفة الى اليوم والى غد ينحون هـذا النحو ويطمعون أو يتمنون أن يكون الحكم الى الفلسـفة ولعلك تعلم شيئاً من رأي رينان في هذا

ثم يريد افلاطون أن يأخذ الطبقة الثانية طبقة الجيش بنوع من النظام شديد صارم يمكنها من أن تؤدي واجب الدفاع كما ينبغي ويمكنها من أن تحفظ التوازن بين هذه القوى التي تتألف منها المدينة ويعدها في الوقت نفسه لأن ترقى اذا أدركتها السن الى طبقة الفلاسفة الذين يحكمون . يريد افلاطون أن يزيل بين أفراد هذه الطبقة كل سبب للفرقة أو الخصومة ، وأي سبب للفرقة أو الخصومة أقوى من الشخصية ، يجب اذن أن تزول الشخصية ، يجب ألا يوجد الفرد لنفسه بل للدولة ومعنى ذلك أن كل ما يكوّن الفرد وشخصيته يجب أن يزول ، يجب أن تمحى الملكية فلا فقر ولا غنى ولا حقد بين الفقير والغني ولا خصومة بين الأغنياء ، يجب أن تزول الأسرة فلا زوجية ولا ابوّة أي يجب أن تكون المرأة حظاً شائعاً بين أفراد الطبقة جميعاً تشرف الحكومة على توزيعه بين هؤلاء الافراد ، ويجب أن تمحى الابوة فلا يثبت النّسب من الافراد وانما الاطفال جميعاً أبناء الدولة تغذوهم وتقوم على تربيتهم وتنشئتهم حتى يبلغوا سن الرشد ويندمجوا في الجيش ، وهي لا تربيهم جميعاً أو قل لا تحتفظ بهم جميعاً وإنما تحتفظ منهم بمن تستيقن انه نافع للدولة يستطيع أن يدفع عنها حقاً . واذن فالمرضى من الأطفال والذين ساء تكوينهم أو أصابتهم العاهات يجب أن تنبذهم الدولة نبذاً . ولا يفرق افلاطون في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة في هذه الطبقة وإنما هما سواء على أن توزع الحكومة بينهما

حظوظهما من الحقوق والواجبات فتكلف كلا ما هو أهل له من الواجبات لصيانة الدولة وحياطتها

اما الطبقة الثالثة فيكاد يهملها افلاطون وهو لا يريد منها إلا أن تقسم الى الجيش والحكومة مايحتاجان اليه ، ومن هنا لم يلغ الملكية في هذه الطبقة ولم يلغ الاسرة ، وما يعنيه من هذه الطبقة ما دامت خاضعة لسلطان الجيش وسلطان الحكومة

هذه هي المدينة الفاضلة الافلاطونية أعطيتك منها صورة موجزة بل ناقصة لأني أهملت كثيراً من النظريات الافلاطونية في السياسة والتربية حرصاً على الايجاز. والناس يرون أن هذه المدينة الافلاطونية حلم من أحلام الخيال ، ولكن من الحق علينا أن نلاحظ شيئين ، أحدهما أن أفلاطون نفسه قد سبق الناس جميعاً الى الشعور بأن مدينته هذه خيال ليس إلى تحقيقه من سبيل فعدل في كتاب القوانين وهو آخر كتاب كتبه ويقال أنه تركه غير كامل ولا منقح عن بعض هذه الآراء الخيالية لا لأنه جحدها أو عرف أنه مخطىء فيها بل لأن تجاربه في صقلية وملاحظاته في بلاد اليونان قد بينت له مكان الغلو في هذه النظريات وعلمته أن المثل الاعلى شيء والحقيقة الواقعة شيء آخر . الملاحظة الثانية أن هذه النظريات الافلاطونية التي تمثل ما يجب أن يكون لا ما يمكن أن يكون قد تركت آثاراً قوية جداً في الحياة الانسانية المعاصرة له والتي جاءت بعده . فقد يقال أن بعض المدن اليونانية الاسيوية تأثرت بسياسة افلاطون وطلبت الى بعض الافلاطونيين أن يضعوا لها النظم السياسية الملائمة للمدينة الفاضلة

قليلاً أو كثيراً كما أن بعض المدن اليونانية في ايطاليا تأثرت بالفلسفة « الفيثاغورية » ووكلت امورها الى الفيثاغوريين

ومهما يكن نصيب السياسة الافلاطونية من الفوز أو الاخفاق في حياة المدن اليونانية فان هذه السياسة قد أحرزت فوزاً عظيماً لا يزال قائماً إلى الآن والى غد وهو فوزها في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية بنوع خاص . فان شيئاً من المقارنة بين نظام افلاطون وتصوره للطبقة الحاكمة في مدينته الفاضلة وبين نظام الكنيسة الكاثوليكية يقنعك بأن هذه الكنيسة تأثرت تأثراً غير قليل بالفلسفة الافلاطونية في نظامها الدستوري الذي لا يزال قائماً

* * *

وجملة القول أن شخصية افلاطون كانت وما زالت وستظل أبداً شخصية قوية عظيمة التأثير في الحياة العامة بحيث أنك لن تستطيع أن تدرس مذهباً روحياً قديماً كان أو حديثاً دينياً كان أو فلسفياً الا وجدت للفلسفة الافلاطونية فيه أثراً يختلف قوة وضعفاً باختلاف الظروف التي أحاطت بتكوين هذا المذهب . ولقد يكون من اللذيذ أن ندرس في يوم من الايام تغلغل التأثير الافلاطوني في الطبقات المختلفة من الشعوب المتباينة فالى الفلسفة الافلاطونية ممتزجة بعناصر اخرى متنوعة يرجع كثير من فنون السحر والكهانة والتصوف وما الى ذلك من هذه الفنون التي لا تزال عظيمة السلطان على الطبقات الدنيا في أكثر الشعوب

لم يكد افلاطون يأخذ في تعليمه الفلسفي فى اثينا حتى أسرع

إليه الناس يستمعون له ويناقشونه ويحاورونه وما هي إلا أن أصبحت مدرسته مجمعاً علمياً أو قل مجمعاً فلسفياً لا يتألف من التلاميذ والاستاذ بل يتألف من طائفة من الفلاسفة يتقسمون العمل فيما بينهم ويعنى كل واحد منهم بمسألة أو طائفة من المسائل يدرسها ويفرغ لتحقيقها حتى اذا مات افلاطون خلفه تلاميذه على ادارة المدرسة وتفرق أصحابه في المدن اليونانية كما تفرق أصحاب سقراط فأنشأوا فيها المدارس الافلاطونية التي اختلفت ميولها ولكنها كانت أقرب الى الاتفاق من المدارس التي انشئت بعد سقراط . على أن تلميذاً من تلاميذ افلاطون كان قد نزل من قلب استاذه منزلة خاصة حتى اعجب به هذا الاستاذ فكان يسميه « العقل » . هذا التلميذ لم يلبث ان انشأ مدرسة في اثينا نفسها تعرضت لدرس المسائل الفلسفية التي تعرض لها افلاطون فغيرت وجهة النظر الفلسفي تغييراً ظاهراً وأعطت الفلسفة اليونانية شكلها الاخير ، نريد بهذا التلميذ « ارسطاطاليس » وبهذه المدرسة مدرسة « اللوكايون » (Lycée) ولا بد من أن نخصص لارسطاطاليس ومدرسته بحثاً كهذا البحث الذي خصصناه لافلاطون

ارسطاطاليس



ارسطاطاليس

١ — شهد سقراط في شبابه مجد الأمة اليونانية عامة ومدينة أثينا خاصة وشهد في شيخوخته هذه الجهود العنيفة التي كانت تبذلها هذه الامة اليونانية نفسها لتقضي على ما كان لها من قوة وسلطان. شهد تلك الحرب التى لم يعرف العالم القديم مثلها. والتي أثرت في الحياة اليونانية تأثيرين مختلفين ، فرقت الحياة العقلية وحطت الحياة السياسية وكانت فلسفة سقراط ممثلة لهذين التأثيرين ، كان فيها انصراف عن الحياة السياسية وازدراء لها أو قل كان فيها سخط

على هذه الحياة السياسية وكانت فيها من ناحية اخرى عناية بالحياة العقلية وحرص على تقويتها وترقيتها وتهذيبها . وشهد أفلاطون في شبابه ضعف الامة اليونانية عامة ومدينة أثينا خاصة وتدخل الاجنبي في أمر هذه الأمة التي كانت شديدة البأس واسعة السلطان، فاصبحت أداة تصطنعها الامة الفارسية لارضاء مطامعها المختلفة في آسيا وفي اوربا وشهد في شيخوخته انحلال هذه الامة اليونانية وموت الروح الوطني فيها ، وكانت فلسفته ممثلة لهذا العصر الذي عاش فيها تمثيلا صحيحاً ؛ فكانت من جهة كفلسفة سقراط ترمي الى تقوية الحياة العقلية ومحاولة أن تكون وحدها غاية الرجل الحكيم وكانت من جهة أخرى كفلسفة سقراط أيضاً تمثل السخط على الحياة السياسية الحاضرة وتتخذها موضوعاً للعبث والسخرية ولكنها لم تكن يائسة من الاصلاح وانما كانت تخالف فلسفة سقراط وترمي الى وضع نظام جديد للحياة السياسية ليس يعنينا الآن أكان في نفسه حسناً أم سيئاً ، معقولاً أم غير معقول ، ولكن الذي يعنينا أنه كان محاولة للاصلاح ورغبة في اقامة بناء سياسي جديد ودليلا واضحاً على أن البناء السياسي القديم الذي كان قد أخذ يتصدع أيام سقراط قد أشرف الآن على أن ينهار ولم يبق من الاستعداد بد لاقامة بناء جديد على أنقاضه . وقد عرفت من الفصول السابقة فلسفة سقراط وأفلاطون وتأثيرها في الرأي العام أثناء حياة هذين الفيلسوفين وبعد موتهما . أما الفيلسوف الذي أريد أن احدثك عنه في هذا الفصل فمتصل بهذين الرجلين العظيمين من جهة ومنفصل عنهما من

جهة أخرى

هو سقراطي وهو افلاطوني لأنه كان كسقراط وكأفلاطون يقيم فلسفته على أن الحقائق ثابتة وعلى أن الشك سخيف وعلى أن هذه الحقائق الثابتة تنتهي كلها آخر الأمر الى حقيقة عليا عنها صدرت واليها تعود وهي حقيقة الاله الذي صدر العالم عنه والذي يعود العالم اليه ولكنه يخالف سقراط ويخالف افلاطون في طريقة البحث والتفكير والنتائج الفلسفية التفصيلية التي انتهى اليها وربما كان من الحق أن تقول انه يخالف سقراط وافلاطون مخالفة شديدة في تكوين عقله وتوجيه هذا العقل الى حقائق العلم وظواهر الحياة

(٢) وكما أن فلسفة سقراط وفلسفة افلاطون تمثلان الحياة اليونانية في عصريهما فان فلسفة ارسطاطاليس تمثل هذه الحياة أيضاً تمثيلاً قوياً صادقاً ، فهي الدليل الناطق بأن الفلسفة السقراطية قد نجحت فيما كانت تحاول من اضعاف النظم السياسية القائمة ، وهي الدليل الناطق بأن الفلاسفة كانوا مصيبين في فهم الحياة السياسية والاقتناع بأنها سيئة وبأنها منتهية للكوارث من غير شك

كان عصر ارسطاطاليس عصر تطور غريب لم يشهد العالم القديم مثله وقد بدأ هذا التطور ضئيلاً ضيقاً لم يتجاوز شبه جزيرة البلقان حيث أخذ سلطان المقدونيين يعظم ويقوى ويتجاوز حدود مقدونيا في عصر فيليب ، وبينما كان سلطان المقدونيين يشتد داخل مقدونيا وينبسط خارجها كان الفساد يعظم ويشيع في المدن اليونانية على اختلاف قوتها ونظمها السياسية فلم يكن بد من أن تطمح هذه

الدولة الناشئة الى السيطرة على هذه المدن المشرفة على الفناء . ثم لم تكد تخطر هذه الفكرة لزعيم المقدونيين وملكهم فيليب حتى أخذ في تنفيذها وكان كل شيء يسهل عليه هذا التنفيذ وكان للفلسفة حظ عظيم في تسهيله فهي عملت في هدم النظم السياسية القديمة وأسرفت في ازدرائها حتى شككت الناس فيها وصرفتهم عنها . ثم لم تكتف بذلك بل أخذت تدعو الى تغيير هذه النظم والى القضاء على هذه الحياة التي تضطر اليونانيين الى الخصومة والعنف وتورطهم في الحروب المتصلة المهلكة للنفوس والاموال. وظهر في البلاد اليونانية قوم يدعون سراً وجهراً الى وجوب أن يقوم سلطان قوي قاهر يبسط قوته على هذه الأمة اليونانية فيضبط أمورها ويكرهها على احترام السلم فيما بينها من جهة ويوجه قوتها الحربية الى الشرق والى الفرس من جهة أخرى . وليس من شك في أن هؤلاء الدعاة من الكتاب والادباء والفلاسفة كانوا متصلين أشد الاتصال بقصر فيليب وفي أن فيليب كان يمد أكثرهم بالمال والمعونة ويتخذهم قوة معنوية يمهد بها لقوته المادية الضخمة . وقد وفق فيليب في هذا فظهرت في المدن اليونانية كلها أو أكثرها أحزاب سياسية تميل الى مقدونيا وترغب في محالفتها ومناصرتها وكانت هذه الأحزاب بطبيعتها مخاصمة للديمقراطية أو للديمقراطية المتطرفة على أقل تقدير ، وقد تم النصر لفيليب فقهر الأمة اليونانية واضطرها الى أن تذعن لسلطانه وتنتخبه قائداً عاماً لجيوشها وتكلفه حرب ملك الفرس. فلما مات فيليب نهض ابنه الاسكندر لتنفيذ خطته فأنفذها كما تعلم وكما

سنعرض لذلك في فصل غير هذا الفصل

وكان ارسطاطاليس يوناني الأصل ولكنه مقدوني النشأة، وُلد في مستعمرة يونانية قريبة من مقدونيا يقال لها «ستاجيرا» ولكنه نشأ في مقدونيا لأن اباه نيكوماخوس كان طبيباً لملك من ملوكها وقد تأثر من غير شك بحياة القصر المقدوني وعادات الاشراف المقدونيين وظهرت نتائج ذلك واضحة جلية في حياته وفلسفته معاً. فلم يكن ارسطاطاليس سقراطي السير ولا افلاطونياً في حياته وانما كان رجلاً عملياً يعيش كما يعيش غيره من الناس متمتعاً بلذات الحياة كما يستمتع بها غيره من الناس لا يضيق على نفسه ولا يتكلف زهداً ولا تورعاً ولا حرماناً وكان كما سترى عملياً في فهمه وتصوره وحكمه على الاشياء. وليس من شك في أنه كان مقدوني النزعة السياسية يقدر فساد الحياة اليونانية العامة كما يقدر قوة مقدونيا وقدرتها على ضبط الأمور. وقد رحل الى أثينا حين بلغ العشرين فاختلف الى اساتذة البيان والفلسفة فيها ولكنه لازم افلاطون ملازمة خاصة

فتن بافلاطون وفتن به أفلاطون أيضاً حتى لقد يقال ان أفلاطون كان يؤثره وكان يسميه القراء وكان يسميه العقل أيضاً. وقد ظل ملازماً لأفلاطون أعواماً طوالا فقد كان يختلف الى الاكادمية ويشترك في محاوراتها الفلسفية المختلفة، فلما مات افلاطون سنة ٣٤٧ قبل المسيح وتفرق نفر من تلاميذه عن أثينا ساح أرسطاطاليس في الأرض حيناً فزار آسيا اليونانية التي كانت خاضعة حينئذ لسلطان الفرس. وكما أن حياته فى مقدونيا وفي البلاد اليونانية أقنعته بضعف

السلطان اليوناني وفساد أمر اليونان فان حياته في آسيا اقنعته بضعف الفرس وفساد أمرهم. ولا شك في أن رجلاً ذكي القلب رشيداً كأرسطاطاليس كان يقدر هذا الفساد العام في الشرق والغرب ويرى كما كان يرى غيره من المفكرين أن الخير كل الخير هو أن تقوم دولة قوية فتجمع كل هذه القوى المتفرقة الضائعة وتوجهها الى ضبط الأمر في العالم المتحضر، ولكن حياة أرسطاطاليس لم تكن في ظاهر الأمر سياسية وانما كان الرجل منصرفاً الى التفكير والى البحث الفلسفي. وقد عاد الى أوربا ودعاه فيليب الى تربية ابنه الاسكندر وتأديبه فعاش في القصر المقدوني أعواماً. ومهما يكن من شيء ومهما تسكت النصوص التاريخية فقد كانت لحياة أرسطاطاليس في قصر فيليب آثار سياسية مزدوجة، كان يشير على فيليب وكان يكوّن الاسكندر تكويناً ملائماً لأطوار العصر الذي يعيش فيه ولآمال فيليب وآمال مقدونيا أيضاً

ثم مات فيليب وأخذ الاسكندر في تنفيذ خطة أبيه فعاد أرسطاطاليس الى أثينا وأنشأ فيها مدرسته المعروفة باسم «لوكايون» (Lycée) واتصلت الرسائل بينه وبين تلميذه الملك وكان الملك يرسل اليه الاموال والطرائف من آسيا معونة له على بحثه العلمي. على أن الصلة فسدت آخر الأمر بين الاستاذ وتلميذه لأن ابن أخت الفيلسوف الذي كان مرافقاً للملك اتهم بالائتمار بالملك فقتله الاسكندر ونتج عن ذلك فساد الأمر بينه وبين أستاذه

مات الاسكندر وانتقض اليونانيون على السلطان المقدوني

ورفعت الديموقراطية اليونانية برأسها وأخذت في تتبع المقدونيين وأنصارهم فخرج ارسطاطاليس من أثينا هارباً ولكنه لم يلبث أن مات بعد سنة أو نحو السنة في جزيرة «أوبوا» سنة ٣٢٣ قبل المسيح

(٣) المؤرخون القدماء والمحدثون مجمعون على أن أرسطاطاليس ترك من الآثار الفلسفية شيئاً ضخماً لم يسبق الى مثله ولا الى مايشبهه ولكنهم يختلفون في مقدار هذه الآثار اختلافاً عظيماً جداً وقد لا يكون من الخير أن نعرض لهذا الاختلاف ولا لتفصيل البحث عن كتب ارسطاطاليس وما بقي منها فانك تجد ذلك مفصلاً في مقدمة كتاب «الاخلاق» الذي ترجمه الى العربية الاستاذ أحمد لطفي السيد بك وفي مقدمة «نظام الاثينيين» الذي ترجمته أنا الى العربية . وانما نكتفي هنا بالاشارة الى أن ارسطاطاليس كان ينهج في مدرسته منهجين مختلفين : منهج التعليم الخاص الذي لا يحضره ولا يشترك فيه الا تلاميذ المدرسة واعضاؤها ، ومنهج التعليم العام الذي كان مباحاً للكافة

كما أن تعليمه قد انقسم الى هذين القسمين فان كتبه وكتب تلاميذه انقسمت اليهما أيضاً فكانت منها الكتب المدرسية الخالصة التي انشئت للمدرسة ولأبحاثها والتي لم يكن يحسن فهمها ولا التصرف فيها إلا الذين تعودوا لغة المدرسة وأساليبها ومناهجها الفلسفية ، وكانت منها كتب أخرى سهلة يسيرة توضع لعامة الناس وتذاع فيهم وهذه الكتب هي التي ذهبت بها كلها أو أكثرها أحداث الزمان، أما الاخرى فقد بقيت في المدرسة ثم انتقلت منها وعبثت بها

الحوادث حيناً حتى استولى «سولا» الروماني على مدينة أثينا فنقلها الى روما وقد أصابها فساد شديد. ومن ذلك الوقت أخذ الفلاسفة في درسها وتصحيحها واذاعتها وقد بقي لنا أكثر هذه الكتب وهو يزيد على الاربعين. واذا نظرنا في جملة ما بقي لنا من آثار ارسطاطاليس استطعنا أن نتصور بوجه ما عمل مدرسته وعمله أيضاً فقد يظهر أن ارسطاطاليس لم يكن يقصر عمله كما كان يفعل افلاطون على البحث الفلسفي ووضع الكتب الفلسفية المختلفة وإنما كان يقصد الى شيء آخر أجل خطراً وأبعد أثراً في الحياة العقلية العامة من هذا كله، كان يريد أن تكون فلسفته وكتبه خلاصة صادقة لكل ما وصل اليه العقل الانساني من نتائج البحث عن كل شيء، كان يريد أن تكون كتبه أشبه شيء بما نسميه نحن دائرة المعارف الآن. ويظهر أنه كان يقسم العمل بين أصحابه فيختص كل واحد منهم بنوع من أنواع البحث وفن من فنون الفلسفة يدرسه ويستقصيه ويقدم نتيجة درسه الى المدرسة ومن هذه النتائج المختلفة كان يتكون البحث الفلسفي العام الذي يختصرها ويلخصها. يظهر هذا ظهوراً قوياً في كتاب « السياسة » فنحن نعلم أن ارسطاطاليس جد في الاستعداد لهذا الكتاب فاستقصى النظم الدستورية لطائفة ضخمة جداً من المدن اليونانية وغير اليونانية واستطاع بعد هذا الاستقصاء أن يضع كتاب « السياسة » الذي هو الخلاصة العامة لكل هذا البحث الطويل الدقيق. ولدينا نموذج لهذا البحث المفصل وهو كتاب « نظام الاثينيين » الذي استكشف في مصر آخر القرن

الماضي والذي يمثل لنا دقة في البحث ومهارة في الاستقراء لم يكن للعلم بهما عهد من قبل

(٤) على أن ارسطاطاليس يخالف افلاطون وسقراط من وجهة أخرى هي نهجه التعليمي الخالص فلم يكن يعتمد في هـذا النهج كما كان يعتمد سقراط وافلاطون على الحوار ولم يكن يعنى كما كان يعنى افلاطون بالاجادة الفنية البيانية وانما كان عالماً قبل كل شيء يهجم على موضوعه هجوماً دون أن يدور حوله بالحوار والمناقشة ويعنى بالفكرة قبل أن يعنى باللفظ الذي يسوغها فيه ومن هنا لم تكن كتب ارسطاطاليس ككتب افلاطون نموذجاً فنياً للاجادة البيانية وإنما هي نموذج خالد لأجادة البحث العقلي واتقانه ، على أن هناك وجهاً آخر ظهر فيه الخلاف بين ارسطاطاليس وبين افلاطون وسقراط فقد كان سقراط يتنقل بفلسفته في شوارع اثينا من حانوت إلى حانوت ومن ميدان الى ميدان ثم جاء افلاطون فأقر تعليمه الفلسفي في مدرسة اختارها لهذا التعليم هي «الاكادمية» كان يعيش فيها ويختلف اليه تلاميذه فيدرسون ويتحاورون ، أما ارسطاطاليس فقد تخير المدرسة واستقر فيها مع تلاميذه كما فعل افلاطون ، ولـكنه لم يكن يعلم ولا يحاور جالساً مستقراً وإنما كان يمشي في حديقة مدرسته ومن حوله أصحابه وتلاميذه فيدرسون ويحللون ويستنتجون فـكان وسطاً في ذلك بين سقراط المتنقل وافلاطون المستقر ، ومن هذا المشي مع أصحابه سميت مدرسته مدرسة المشائين واطلق اسم المشائين على الذين ينتمون الى مذهب ارسطاطاليس في الفلسفة وربما كان من الحق ان

تقرر أن ارسطاطاليس قد نهض بالفلسفة نهوضاً عظيماً ورقاها ترقية بعيدة الاثر حين عدل عن أسلوب الحوار الى أسلوب البحث المباشر المتصل فقد يصلح الحوار في ألوان من الفلسفة وضروب من التفكير ولكنه من غير شك بعيد كل البعد عن أن يلائم البحث الفلسفي العميق عن الطبيعة وما بعد الطبيعة وعن المنطق وما يتصل به من فنون الادب فهو اذا صلح اسلوباً للبحث السياسي والخلقي لا يصلح لغيرهما ، ومن هنا كانت فلسفة ارسطاطاليس في الطبيعة وما بعد الطبيعة أشد استقراراً وأقدر على البقاء من فلسفة افلاطون

(٥) ولقد أشق ولقد أسرف في الاطالة لو اني حاولت أن أختصر لك صورة ما من فلسفة ارسطاطاليس . وكيف السبيل الى ذلك في صحف معدودة ولم يترك ارسطاطاليس فناً من فنون الفلسفة ولا لوناً من ألوان البحث الانساني الا عرض له وقال كلمته فيه، انما الذي يعنيك من فلسفة ارسطاطاليس هو أن تعلم أنه الفيلسوف الوحيد الذي حاول في العصر القديم أن ينظم العلم الانساني من جهة ويستقصي قوانين التفكير والتعبير والسيرة العامة والخاصة من جهة أخرى . ففلسفته تدور على هذين الأمرين ، تريد أن تعلم الى أي حد وصل العقل الانساني في القرن الرابع قبل المسيح في درس مسألة بعينها من مسائل الطبيعة أو ما بعد الطبيعة فمرجعك في ذلك انما هو ارسطاطاليس ، تجد فيه نتائج البحث الذي سبقه ، وتجد فيه نقد هذه النتائج ، وتجد فيه رأيه الخاص في هذه النتائج . ومن هنا انقسمت فلسفة ارسطاطاليس الى قسمين أساسيين أحدهما القسم الذي

احدث آثاره الطبيعية المعقولة ثم أصبح شيئاً تاريخياً يرجع اليه الذين يدرسون تاريخ الفلسفة وتاريخ الحياة العقلية عامة ليستعينوا على فهم هذا التاريخ وهنا القسم هو المباحث التي تتصل بالطبيعة وما بعد الطبيعة فهو يدرس الآن ويدرس درساً دقيقاً لا لينتفع به انتفاعاً مباشراً في الحياة العملية بل ليستعان به على فهم العقل الانساني وما ناله من التطور على اختلاف العصور وليس هذا بالشيء القليل ، الثاني هو القسم الذي احدث آثاره الطبيعية المعقولة وما زال يحدثها وسيحدثها أبداً دون أن يناله في ذلك ضعف أو قصور أي هو القسم الذي بقي وسيظل صالحاً للبقاء والذي لم يستطع العقل الانساني على رقيه ونضوجه أن يمحوه أو يغير منه قليلا وهو كل ما تركه ارسطاطاليس في المنطق والادب والاخلاق والسياسة ، فقد استقصى ارسطاطاليس في المنطق قوانين العقل الانساني في البحث والتفكير على اختلاف درجاتهما واطوارهما وهذه القوانين ثابتة لا تتغير ملائمة للانسان من حيث هو انسان لا من حيث انه شرقي او غربي ولا من حيث انه قديم أو حديث . وقد يتطور العقل الانساني فيشتد تأثره بناحية من انحاء البحث دون ناحية أخرى ولكن هذا لا يستتبع الغاء قانون من القوانين التي استكشفها أرسطاطاليس وانما يستتبع تقديم هذه القوانين على بعض فقد كان القدماء واهل القرون الوسطى من العرب والاوربيين يعنون عناية خاصة بالقياس ويعتمدون عليه في بحثهم الفلسفي ثم تطور العقل واصبحت الفلسفة الحديثة تعتمد على الاستقراء اكثر مما تعتمد على القياس ونحن نعلم أن

ارسطاطاليس قد إستكشف قوانين القياس وقوانين الاستقراء جميعاً وأن الفلسفة الحديثة ان عنيت عناية خاصة بالاستقراء فهي لا تلغي القياس ولا تستطيع ان تلغيه لانه صورة طبيعية من صور التفكير الانساني

وكما أن منطق ارسطاطاليس خالد فادبه خالد ايضاً . ونريد بهذا الادب قوانين البيان التي استكشفها ارسطاطاليس في العبارة والشعر والخطابة . فهذه القوانين باقية خالدة لأنها الصور الطبيعية لتعبير الانسان عن آرائه كما أن قوانين المنطق هي الصور الطبيعية لتكوين هذه الآراء . ومن غريب الامر أن أهل الادب الاوربي في اواخر القرون الوسطى واوائل العصر الحديث كانوا يزعمون أن ارسطاطاليس يقيد القصص التمثيلية المحزنة بقيود يقال هي الوحدات الثلاث : وحدة الزمان والمكان والعمل ، فلما وضع « كورنيل » قصة «السيد» اشتدت حملة النقاد عليه لانه شذ عن هذه الوحدات ونشأ من هذا خلاف بين الادب القديم والاحرار من الادب الحديث. كثر فيه القول كثرة فاحشة ثم استكشف ادب ارسطاطاليس وما كتبه عن الشعر وعن القصص التمثيلية المحزنة فاذا هو لم يذكر هذه الوحدات ولم يُشر اليها واذا آراء الاوربيين الذين كانوا يضيفون اليه هذه الوحدات لم تكن قائمة الا على الجهل والوهم واذا القوانين الادبية التي استكشفها ارسطاطاليس لا تزال باقية صالحة للبقاء كقوانين المنطق . وقل شيئاً يشبه هذا بالقياس الى القوانين السياسية والخلقية التي استكشفها ارسطاطاليس فقد تطورت النظم

السياسية وقواعد الاخلاق ولا شك في أنها ستتطور ولكن القواعد الاساسية لارسطاطاليس ستظل قائمة باقية لإنها تتبع هذا التطور وتسيطر عليه ، فمهما تتغير الجماعات ونظمها فستظل القاعدة السياسية الاساسية هي هذا القانون الذي وضعه ارسطاطاليس وهو أن حسن الحكومة وقبحها شيئان اضافيان فالحكومة الحسنة ليست هي الملكية ولا الجمهورية ارستقراطية كانت او ديموقراطية وانما هي الحكومة الملائمة للشعب ، واذاً فكل حكومة مهما تكن صورتها خير اذا لاءمت روح الشعب ومنافعه. فأي تطور اجتماعي او سياسي يستطيع ان يغير هذه القاعدة الخالدة ؟ كذلك قد يتغير شعور الانسان وحكمه على الاشياء ومذهبه في قياس الخير والشر ولكن القانون الخلقي الذي وضعه ارسطاطاليس سيظل خالداً لانه فوق التطور يدبره ويسيطر عليه . فأي تطور يستطيع أن يغير هذا القانون قانون الاوساط الذي يقضي بأن الاسراف شر وبأن التقصير شر وبأن الخير حقاً انما هو التوسط في الامر . وأي تطور يستطيع أن يغير هذا القانون الآخر الذي استكشفه ارسطاطاليس وانتهى اليه العلم الحديث وهو أن الامر في الاخلاق كالامر في السياسية يجب أن يقوم على الاضافية فليس هناك خير مطلق أو شر مطلق لا ينالهما تغير أو تبدل وانما الخير والشر اضافيان يتأثران بكل ما تتأثر به الحياة العامة والخاصة من الظروف

اذاً فليس من الحق أن ارسطاطاليس فيلسوف قديم وانما الحق أنه فيلسوف خالد ملائم لكل زمان ولكل مكان ، هو كما سماه

العرب حقاً « المعلم الاول »

(٦) وهو بحكم هذا الاسم قائد من قادة الفكر او قل اكبر قائد من قادة الفكر وكيف تريده أن اثبت لك أنه اكبر قائد من قادة الفكر وأنت تعلم معي أن فلسفة ارسطاطاليس سيطرت منذ ظهورها على العقل الانساني القديم وأن فلسفة ارسطاطاليس هي التي كونت العقل العربي الاسلامي وهي التي اوجدت فلسفة العرب وتوحيدهم وهي التي تغلغلت في الحياة العربية حتى أثرت في البيان العربي تأثيراً قويا وأن فلسفة ارسطاطاليس هي التي كونت العقل الاوربي في القرون الوسطى وهي التي اتخذها العقل الاوروبي مصدراً واساساً لعلمه وفلسفته في العصر الحديث. بل هناك ميزة يختص بها ارسطاطاليس دون غيره من الفلاسفة القدماء والمحدثين وهي ان خصومه والمنتمين الى المذاهب الفلسفية والدينية المناقضة لفلسفته يتخذون فلسفته نفسها وسيلة الى محاربته فالافلاطونيون ينقضون فلسفة ارسطاطاليس بنفس القواعد التي استكشفها ارسطاطاليس للبحث والنقض والاستدلال وكذلك قل عن المسيحيين والمسلمين والمحدثين من الفلاسفة ، كل اولئك استخدم وما زال يستخدم منطق ارسطاطاليس لمخاصمة ارسطاطاليس ، اذاً فهذا الاسم من الأسماء الخالدة التي قد تكون اشد من الدهر قدرة على البقاء ان صح مثل هذا التعبير . ومن اراد أن يبحث عن قادة الفكر فلن يستطيع أن يوفق الى اجادة البحث واحسانه الا اذا عني بارسطاطاليس وفلسفته وأنزلها منزلتها الحقيقية وهي المنزلة الاولى

الإسكندر



اسكندر المقدوني

(١) كانت قيادة الفكر الى الشعراء أول عهد العالم القديم بالوجود الاجتماعي والسياسي ثم ارتقى هذا العالم القديم من الوجهة الاجتماعية والسياسية والعقلية فانتقلت قيادة الفكر من الشعر الى الفلسفة وأصبح قادة الفكر فلاسفة ومفكرين بعد أن كانوا أصحاب شعر وخيال. ولكن هذه الفلسفة نفسها جدت في سبيلها التي سلكتها الى الرقي وانتهت الى ما لم يكن بد من أن تنتهي اليه فأحدثت في النفوس شكاً وتناولت النظم القائمة بالنقد حتى هدمتها أو كادت تهدمها، وظهر أنها عاجزة عن قيادة الفكر بعد أن وصلت الجماعات الى هذا الطور الذي وصلت اليه في القرن الرابع قبل المسيح كما ظهر منذ قرون عجز الشعر عن قيادة الفكر بعد أن تبدلت الحياة الاجتماعية والسياسية، ولم يكن بد من أن تنزل الفلسفة عن سلطانها لشيء آخر يخلفها على قيادة الفكر وتوجيه الحياة الانسانية وجهة

جديدة تلائم هذه الاطوار الجديدة التي انتهت اليها الجماعات . وفي الحق أن هذا القرن الرابع قبل المسيح كان عصر انتقال عام تظهر آثاره في جميع أجزاء العالم القديم : في الشرق الاسيوي وفي الغرب الاوربي وفي بلاد اليونان خاصة وشبه جزيرة البلقان بوجه عام . فأنت حين تستعرض تاريخ العالم القديم في هـذا العصر لا تجد إلا تغيراً وتبدلاً في النظم وأصول الحـكم في الاخلاق والعادات بل في الشعور الديني نفسه . أما في الشرق فقد كانت الدولة الفارسية العظمى التي بسطت سلطانها على أعظم امبراطورية عرفها تاريخ الشرق القديم واخضعت لهذا السلطان بلاد الفراعنة وبلاد البابليين والاشوريين والفينيقيين، كانت قد انتهت الى شيء من الضعف آذن بان سقوطها قد أصبح أمراً ليس منه بد ، كان الفساد قد اشتمل على ملوكها وزعمائها وكان الترف قد عبث بعامة شعبها الذي كان مصدر قوتها وبأسها وكان العصيان قد انبث في اقطار الأرض التي خضعت لها فاصبحت هذه الاقطار ثائرة مضطربة يطمع بعضها في استرداد استقلاله القديم ويخضع بعضها الآخر لاطماع الحكام والمستبدين. وكانت السلطة المركزية قد يئست من أن تقبض بنفسها على ازمة الامر فلجأت الى اعدائها اليونان تجندهم لحماية أقطارها وتستأجرهم للدفاع عن سلطانها ، وكانت الامـة اليونانية على ما علمت في الفصل الماضي من الضعف والانحلال والفساد الخلقي والسياسي والزهد في هذه النظم السياسية التي الفتها والتي ظهر فسادها وعجزها عن ضبط الأمور ، ولم تكن ايطاليا ولا غرب أوربا أقل اضطراباً من بلاد اليونان والشرق فقد

كانت مدينة روما الناهضة تبسط سلطانها الجديد قليلاً قليلاً على ايطاليا وكان الجهاد عنيفاً بينها وبين عناصر مختلفة كانت تنازعها السلطان، كان الجهاد عنيفاً بينها وبين المستعمرات اليونانية الايطالية وكان عنيفاً بينها وبين الفينيقيين من أهل قرطاجنة وكان عنيفاً بينها وبين المدن الايطالية التي كانت تستمتع بالحياة المستقلة في أمن وسلم فاصبحت الآن ترى هذه الحياة المستقلة معرضة للخطر، ذلك الى هذه القبائل البربرية التي أخذت تندفع الى بلاد ايطاليا والى غرب أوربا والتي لم تجد روما بداً من أن تقف منها موقف المدافع المانع — كل شيء في العالم القديم كان يدل في هذا القرن الرابع على أن الحياة الانسانية في حاجة الى ان تتجدد وعلى أن النظم الانسانية في حاجة الى أن تتغير وعلى أن القوة لا بد من أن تظهر لتضبط الأمر وتقضي على هذه الفوضى العامة.

(٣) وكان لهذه القوة المنتظرة مركزان أحدهما قريب من الشرق في مقدونيا والآخر قريب من الغرب في روما ولكن هذه القوة المقدونية كانت فيما يظهر أقدر على الظفر وأخلق بالانتصار من القوة الرومانية لأنها كانت قريبة من مركز الحياة الادبية والسياسية القوية كانت قريبة من اليونان شديدة الاتصال بهم وكانت قريبة من آسيا أيضاً . ولست في حاجة الى أن أذكر لك مقدونيا وتاريخها ولا الى أن أفصل لك نهضتها السياسية واستئثارها بالقوة فكل ذلك شيء لا يعنينا الآن وإنما الذي يعنينا هو أن ملكا من ملوكها وهو فيليب قد استطاع أن يكسب لها قوة حربية ضخمة واستطاع

بهذه القوة أن يستأثر بالامر كله في البلاد اليونانية وأن يخضع هذه المدن اليونانية لسلطان قوي حازم ويقضي على ما كان بينها من نزاع وخصومة ويوجه قوتها المادية والمعنوية الى وجهة جديدة نافعة هي الاستيلاء على الشرق والقضاء على سلطان الفرس فيه. ولكن فيليب قتل غيلة ولما يبدأ تحقيق غايته الكبرى التي كان يسعى اليها فنهض بالأمر بعده ابنه الشاب الاسكندر واستطاع لا أن يحقق غاية أبيه بل أن يتجاوزها الى شيء لم يكن يخطر لفيليب ولا لغيره من المقدونيين واليونان بل لم يخطر لأحد من قبله وهو اخضاع العالم القديم المتحضر كله لسلطان واحد قوي منظم

لعلك تعجب حين تراني أحدثك عن الاسكندر الفاتح في كتاب يبحث عن قادة الفكر ولعلك تسأل ما بال قائد من قواد الجيوش يخلط بهؤلاء الذين لم يتسلطوا الا على العقول. ولكني قلت لك في أول هذا الفصل أن قيادة الفكر قد انتقلت من الشعر الى الفلسفة ثم من الفلسفة الى السياسة وكان الاسكندر هو الذي نقلها أو قل هو الذي انتزعها من الفلسفة وأقرها للسياسة ولقد يكون من الحق ومن الواجب أيضاً أن يتغير رأي الناس في الاسكندر وفي عظمته وفي مصدر هذه العظمة فالناس جميعاً يؤمنون بأن الاسكندر عظيم ولكنهم يردون هذه العظمة الى ما أحدث الاسكندر من فتح لم يعرفه التاريخ القديم. وكيف لا يكون عظيما ذلك الشاب الذي نهض بالأمر بعد أبيه فلم يكد يستقبل الملك حتى فسد عليه كل شيء واضطرب من حوله كل شيء فاذا جيرانه يغيرون على مملكته من

كل صوب واذا خلفاءه ينقضون الحلف ويثورون به يريدون أن يقضوا على سلطانهم ، واذا هو على حداثة سنه وقلة حظه من التجربة قد ثبت لهذا كله فصد المغير ورد الحليف الى الوفاء بالعهد وقضى على أطماع جيرانه ومحا آمال اليونان في الاستقلال واتخذ من خصومه وأعدائه على اختلاف أجناسهم وتباين أهوائهم وتفاوت حظوظهم من الرقي العقلي جيشاً ضخماً منظماً عبر به البحر الى آسيا فلم يكد يظهر فيها حتى طرد الفرس من آسيا الصغرى .ومضى في طريقه يتبع ساحل البحر حتى أخضع البحر كله لسلطانه وإذا هو في الشام وإذا هو في مصر وإذا هو وارث ملك الفراعنة وإذا هو يؤسس عاصمة العالم الجديد واذا هو يترك مصر ويتعمق في آسيا فيقضي على دوله الفرس ويرث عرشها وإذا هو يجد في غزوه ويمعن في فتحه فيبلغ الشرق الاقصى ويوغل في الهند إيغالاً ويرفع لواء الحضارة اليونانية والادب اليوناني في أرض لم تسمع باليونان من قبل وإذا هو يعود إلى بلاد الفرس ويستقر للراحة في بابل وقد ورث ملك الفراعنة والبابليين والاشوريين والفرس وسلطان اليونان والفينيقيين وضم هذا كله الى ملك مقدونيا الذي ورثه عن أبيه .

كل ذلك لم يرضه ولم يقنعه وما كان استقراره في بابل إلا استعداداً لحركة اخرى أشد عنفاً من الحركة الاولى وأبعد منها أثراً فقد كان يريد أن يستأنف السير فيعبر البحر الى أفريقيا ويمضي في طريقه حتى يبلغ عمود هرقل أو مضيق جبل طارق فيقضي على سلطان

الفينيقيين في أفريقيا الشمالية ويبسط سلطانه على اوربا الغربيا ويقتحم هـذا القسم من اوربا حتى يتم دورته وينتهي إلى مقدونية حيث ابتدأ حركته . كان يستعد لهذا كله وكان زعيما أن يتمه ويوفق اليه لولا أن الموت عاجله فوقفه في منتصف الطريق

كيف لا يكون عظيماً هذا الشاب الذي فعل هذا كله في عشر سنين أو أقل من عشر سنين . نعم هو عظيم ولن تخطىء الاجيال الماضية حين أضافت عظمته الى هذه الحركة العنيفة الخصبة

(٣) ولـكننا مع ذلك نرى أن عظمة الاسكندر ينبغي أن تضاف الى شيء غير هـذا خليق بالخلود حقاً لانه يتصـل بالعقل لا بالارض فلم يكن الاسكندر قائد جيش ليس غير وانما كان قائد فـكر قبـل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء ، لم يفهمه معاصروه ولم يفهمه خلفاءه وفهمناه نحن ولكننا لم نفهمه بعد كما ينبغي

عد الى الفلسفة اليونانية التي أزهرت في القرن الخامس والرابع قبل المسيح والتي انتهت بافســاد النظم السياسية اليونانية ولم توفق الى ايجاد نظم جديدة تخلفها ، عد الى هـذه الفلسفة تجدها كانت تطمح قبل كل شيء وبدون أن تشعر الى توحيد العقل الانســاني وأخذه بنظام واحد في التصور والتفكير والحـكم ولم يكن بدّ إذا لتتصور هذه الفلسفة من أن تتقارب الشعوب وتتعاون على توحيد الحضارة وترقيتها وعلى إيجاد نوع إنساني متحد الغاية متشابه الوسائل في مساعيه ، ولـكن ما السبيل إلى انتصار هذه الفلسفة وما الوسيلة إلى تحقيق غايتها هـذه . اما الدعوة والنشر فما كان من شأنهما أن

يضمنا هذا النصر ولا أن يحققا هذه الغاية فكيف تتصور انتشار فلاسفة اليونان في البلاد الشرقية واذاعة فلسفتهم في هذه البلاد إذا لم يمهد لذلك بازالة الفروق السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين اليونان وغيرهم من الشعوب ، فهم الاسكندر هذا وجد فيه فوفق اليه . اخضع العالم القديم المتحضر كله لسلطان واحد وأزال بين شعوبه تلك الفروق التي أشرنا اليها آنفاً وأتاح للاداب اليونانية والفلسفة اليونانية أن يتغلغلا في أعماق الشرق ويؤثرا في نفوس الشرقيين ويصبغاها هذه الصبغة اليونانية التي كانت قد اعدت من قبل لتكون صبغة عامة خالدة للعقل الانساني كله بل لم يكتف الاسكندر بازالة هذه الفروق السياسية واخضاع العالم القديم كله لسلطان واحد وإنما طمع في شيء آخر أبعد مدى وأعسر متناولا ، طمع في إزالة الفروق الجنسية بين الناس ، لم يكتف بخلط الشعوب بعضها ببعض بل أراد أن يمزجها ويستخلص منها شعباً واحداً ، انظر اليه حين استقر من بابل وقد أخذ في هذا المزج بالفعل فبدأ يزاوج بين اليونانيين والمقدونيين من جهة والفرس من جهة أخرى حتى لقد أحدث في يوم واحد عشرة آلاف من هذه المزاوجة وانفق في تشجيع هذه الحركة أموالاً ضخمة وجعل نفسه وزعماء جيشه قدوة لعامة الجيش بل لم يكتف بهذا وإنما أزمع احداث حركة عامة وأراد أن ينقل طبقات ضخمة من الفرس إلى البلقان وطبقات ضخمة من البلقان الى الفرس لا يريد بهذا كله إلا مزج الشعوب وإزالة ما بينها من الفروق الجنسية ولكن الموت عاجله قبل أن يبدأ

في هذه التجربة التي لو تمت لغيرت وجه الارض ولحولت سير التاريخ . وسواء علينا أكان الاسكندر مصيباً أم مخطئاً في هذه الفكرة وفي انتهاج هذا النهج وسواء علينا أوفق أم لم يوفق وإنما الشيء الواحد الذي لا شك فيه هو أن الإسكندر لم يكن يريد أن يفتح الارض وحدها وإنما كان يريد أن يفتح معها العقل بل قل انه انما كان يفتح الارض تمهيداً لهذا الفتح العقلي بل لا تستعمل كلمة الفتح فلم يكن الاسكندر فاتحاً بالمعنى الذي فهمته الاجيال المختلفة ، لم يكن صاحب حرب وقهر وغلب وإنما كان صاحب مودة ومحبة وإخاء وتسوية بين الناس . ولقد أسرف في الاطالة لو أني تحدثت اليك بما لقي الاسكندر في ذلك من مشقة وعناء فقد أنكره المقدونيون حتى ثاروا بزعيمهم وقد سخروا منه اليونان ودبر اولئك وهؤلاء المؤامرات واضطر الاسكندر إلى أن يتخذ العنف وسيلة الى قهر خصومه من أنصار القديم . كان الاسكندر قائد فكر كما كان قائد جيش وقد وفق في قيادة الفكر إلى ما لم يوفق اليه في قيادة الجيش وهنا عبرة تاريخية يجب أن يتفكر فيها من يريد أن نتعظ ويقدر الاشياء كما هي

ظفر الاسكندر في قيادته العسكرية بكل ما كان يريد فخضعت له أقطار الأرض وورث تلك العروش التي ورثها وعبدته الشعوب على اختلافها ولكن هذا الظفر لم يدم فلم يكد الاسكندر يفارق هذه الحياة حتى تفرق اصحابه واختلفوا وشبت الحرب بينهم وتقطع هذا الملك ولم يتم تكوين هذه الدولة التي كان يرمي اليها الفتح العسكري ،

وفشل الاسكندر في قيادته الفكرية أثناء حياته فلم يتم له ما كان يريد من توحيد الشعوب والتقريب بين العقول وإيجاد حضارة واحدة مشتركة ولكنه ظفر بهذا كله بعد موته لأن فتحه العسكري قد غرس هذه الفكرة في جميع أقطار الأرض التي وطئتها جيوشه ولم يكن بد من الوقت لتستطيع هذه الفكرة أن تنبت وتنمو وتؤتي ثمراتها. ولم يكد ينتهي القرن الثامن حتى كانت الحضارة اليونانية حضارة الشرق القديم واللغة اليونانية لغة الشرق القديم وحتى أخذ الشرق يشارك اليونان في آدابهم وفنونهم وفلسفتهم وحتى نشأ من اختلاط اليونانيين والشرقيين مزاج خاص تستطيع أن تجده واضحاً جلياً اذا درست الفلسفة الاسكندرية او آداب الاسكندريين او زرت المتاحف ورأيت هذه الآثار الباقية التي اشترك فيها الشرق واليونان ، وما لنا نضرب الأمثال بهذه الاشياء التي لا يتاح للناس جميعاً أن يشهدوها وبين يدينا مثلان لا يستطيع أن ينكرهما منكر : الأول الديانة المسيحية فليست هذه الديانة الا نتيجة لازمة لتعاون العقلين الشرقي والغربي ومثالاً صادقاً لهذا المزاج الجديد الذي نشأ من هذا التعاون ولهذا ظفرت الديانة المسيحية من الفوز في أوربا بما لم تظفر به الديانة اليهودية لأنها سامية خالصة وبما لم يظفر به الاسلام لأنه أعرق في السامية من الديانة المسيحية . والثاني هذا التفاهم القائم بين الشرق والغرب فمهما تكن الفروق بين الشرقيين والغربيين فهي فروق سياسية أو اجتماعية أو جنسية ، أما الفروق العقلية فقد محيت محواً تاماً وأصبح الشرقي والغربي يفهمان ويحكمان على نحو واحد

فليس هناك علم شرقي وعلم غربي وليست هناك فلسفة شرقية يعجز الغربي عن فهمها ولا فلسفة غربية يقصر الشرقي عن اساغتها ، فكل ذلك أثر من آثار الاسكندر فهو الذي قارب بين الشرق والغرب ومزج العقل الشرقي بالعقل الغربي ولولا حركة الاسكندر هذه لكانت للشرق والغرب شؤون غير شؤونهما التي عرفها التاريخ . الاسكندر اذاً قائد من قادة الفكر بل هو زعيم من زعماء قادة الفكر بل هو أشد قادة الفكر القدماء انتاجاً واكثرهم نفعاً فما قيمة الفلسفة اليونانية كلها لو لم يتح لها الاسكندر ليذيعها في أقطار الأرض ويثبتها في مختلف الشعوب

يوليوس قيصر



يوليوس قيصر

(١) ليس من اليسير أن يذكر الاسكندر دون أن يذكر قيصر فقد كان التشابه بينهما عظيماً على ما بينهما من اختلاف الجنس وعلى ما بين عصريهما من تباين وعلى ما بين الظروف التي أحاطت بحياتهما وبالعالم القديم من عصريهما من افتراق . كان التشابه بينهما عظيماً الى حد أن ثانيهما مكمل لأولهما تكميلاً شعر به القدماء أنفسهم فشبهوا قيصر بالاسكندر واخترعوا في ذلك أساطير مختلفة كثيرة وسواء أكان قيصر يفكر في الاسكندر ويتخذه مثلاً في سيرته ومطامعه السياسية أم لم يكن فليس من شك في أن حياة قيصر وسيرته قد تمما حياة الاسكندر وسيرته

أراد الاسكندر أن يخضع العالم القديم كلــه لسلطان واحد سياسي وأراد أن يكون خضوع العالم لهذا السلطان السياسي وسيلة الى ايجاد الوحدة العقلية في النوع الانساني كلــه والى ازالة الفروق المختلفة التي كانت تفرق بين الشعوب ، وقد أخضع جزءاً عظيماً جداً من العالم القديم لسلطانه ولم تتح له الحياة الوقت الكافي لاخضاع بقية العالم القديم لهذا السلطان . فتح الشرق ولم يستطع أن يفتح الغرب بل أن الظروف أرادت ألا يكون فوز الاسكندر هذا متصلاً فقد عاجلة الموت ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ولما يضع لدولته الضخمة من النظم والقوانين ما يكفل لها الوحدة السياسية التي كان يريد تحقيقها ، فما هي إلا ان اختلف قواده وتقطع ملكه وقامت على انقاض دولته الضخمة دول كثيرة مختلفة ومع هــذا فان فوز الاسكندر عظيم مثلناه لك في الفصل الماضي لأن هــذه الدولة التي قامت على انقاض دولته في أقطار الشرق كانت يونانية كلها فقاربت بين الشعوب ووحدت الحضارة الانسانية وجعلت تعــاون الشرق والغرب أمراً ميسوراً

وبينما كانت هــذه الدول اليونانية الشرقيــة تؤدي في الشرق هذه الخدمة الانسانية القيمة كان الغرب الأوربي الذي لم يستطع الاسكندر أن يصل اليــه خاضعاً لمؤثرين مختلفين هزّاه هزاً عنيفاً واحدثا فيه نفس الظاهرة التي احدثتها حركة الاسكندر في الشرق : أول هــذين المؤثرين ظهور الجمهورية الرومانية في ايطاليــا وانبساط سلطانها قليلاً قليلاً على شبه الجزيرة الايطالي فقد كانت هــذه

الجمهورية قوة سياسية وعسكرية لم يعهد الغرب الأوربي مثلها وكانت نهضتها في الغرب كنهضة مقدونيا في الشرق تمهيداً لحركة عامة غايتها القضاء على الفوضى والوصول إلى جمع أمور الشعوب الغربية في يد قوية حازمة تضبط فيها الأمور . الثاني الجهاد بين الحضارة اليونانية التي كانت تمثلها المستعمرات اليونانية في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وصقلية والحضارة السياسية التي كانت تمثلها هذه الجمهورية الفينيقية الضخمة في أفريقيا الشمالية وهي جمهورية قرطاجنة . كان اليونان قد انبثوا على الساحل الايطالي والفرنسي والاسباني وفي جزيرة صقلية ونشروا حضارتهم وسياستهم وآدابهم وفلسفتهم في جميع البلاد التي استقروا فيها وكان الفينيقيون قد انبثوا في ساحل أفريقيا الشمالية وفي اسبانيا وفي جزيرة صقلية وكان الجهاد عنيفاً بين الجنسين كلاهما يريد أن يظفر بسيادة البحر ليحتكر التجارة احتكاراً ولكن الطبع اليوناني الذي كان يستتبع الخصومة الحزبية داخل المدن والحروب السياسية بين المدن انتج في هذا القسم من الغرب نفس الذي أنتجه في الشرق فضعف أمر اليونان وتفرقت جهودهم واستفاد الفينيقيون من هذا في الغرب كما استفاد الفرس منه في الشرق . ونهضت الأمة الرومانية في ايطاليا لتحقق نفس الغاية التي حققتها النهضة اليونانية في البلقان فاخضعت المدن الايطالية المستقلة وقضت على سكان المستعمرات اليونانية في ايطاليا وصقلية وكونت وحدة غربية قوية جاهدت الفينيقيين كما جاهد الاسكندر دولة الفرس وقضت على الفينيقيين كما قضى الاسكندر على الفرس وخضع الغرب

كله للرومان كما خضع الشرق كله لليونان ، ثم لم يبق بد بعد أن تم هذا كله من أن تصطدم القوتان الشرقية والغربية وتفوز بالسلطان أقدرهما على الحياة وأصلحهما للبقاء. ولست في حاجة إلى أن أبين لك فساد الأمر في الدول اليونانية الشرقية وصلاحه في الدولة الرومانية الغربية فانت تستطيع أن تجد هذا مفصلاً في كتب التاريخ وإنما الذي يعنينا في هذا الفصل هو ان نقول ان القرن الثاني قبل المسيح لم يكد ينقضي حتى كان السلطان الروماني منبسطاً بدرجات تختلف قوة وضعفاً على البلاد اليونانيـة في اوربا وعلى الدول اليونانية في الشرق وحتى كانت فكرة الاسكندر وهي تحقيق الوحدة السياسية للعالم القديم قد أخذت تسرع الى التحقق وتظفر بالوجود الفعلي

(٢) ولكن شيئاً واحداً كان يحول دون تحقيق هـذه الفكرة بالفعل وهو أن العالم القديم على ما أصابه من التطور العقلي والسياسي لم يستطع أن ينسى نظمه القديمة ويضع لنفسه نظما ملائمة لحياته الجديدة فكانت بلاد اليونان محتفظة بحياة المدن على النحو القديم وكانت دول الشرق قائمة على نظم الدول الشرقيـة القديمة بل كانت مدينة روما نفسها تعيش على نظامها الجمهوري القديم وكان العالم حينئذ مظهراً لطائفة من التناقضات الغريبـة لا تكاد تحصى دوله ومدنه المستقلة ولكن هذا الاستقلال الذي كانت تستمتع به إنما كان استقلالا لفظياً لا حقيقياً لأن السلطة الفعلية كانت لمدينة روما على ان مدينة روما نفسها لم تكن تستمتع باستقلالها وحريتهـا

إلا استمتاعاً لفظياً فقد كانت النظم الجمهورية قائمة فيها ولـكن السلطة الفعلية كانت قد انحصرت في أيدي الأغنياء يديرونها كما يشتهون ويصرفونها كما تريد أطماعهم وأهواؤهم وكان السخط عاماً على هذه الحال المنكرة التي تعلن أنواعاً من الاستقلال لا قيمة لها وتجعل حياة الشعوب المختلفة الى أفراد من الناس لا يكادون يبلغون الالف عـدًّا فكان الاضطراب متصلا في الشرق وكان الجهاد بين الطبقات عنيفاً في الغرب وكان كل شيء يدل على أن صلاح الامر واستقراره في هذا العالم القديم لن يتم الا اذا تحققت بالفعل فـكرة الاسكندر واشرف على هـذه الدول والمدن المستقلة سلطان قوي قاهر حازم يضبط الأمور فيها وانت تستطيع أن تجد في تاريخ الرومان تفصيل هـذه الاضطرابات وهذه الالوان من الجهاد الذي ختم حياة الجمهورية الرومانية وكان مقدمـة لتكوين الامبراطورية الرومانية

(٣) في هذا الوقت ظهر شاب روماني من طبقة الاشراف هو يوليوس قيصر، ليس في حياته الأولى ما يميزه من غيره إلا أنه كان مسرفاً فاسد الاخلاق دنس السيرة مبغضاً إلى الذين كانوا يحرصون على الآداب الرومانية القديمة ومع ذلك فقد كان داهية ماكراً لا حد لأطماعه وكان مع هذا كله لا يعرف حداً خلقياً يحول بينه وبين المنكر في سبيل تحقيق هـذه الأطماع ، كان من الأشراف وكان يزعم أن نسبه يتصل بآلهة « فينوس » ولـكنه كان ذكياً فما أسرع ما فهم العصر الذي كان يعيش فيه وما أسرع ما قدر ظروف الحيـاة من

حوله وما أسرع ما عرف أن العوز السياسي انما ينال بالتملق إلى طبقات الشعب والمبالغة في ارضاء هـذه الطبقات وما هي إلا أن أخذ يترضى هذه الطبقات فاذا هو كريم مسرف ينفق بغير حساب يستدين حتى يثقله الدين ولا يدع شيئاً يتوهم أن فيه رضى لطبقات الشعب الا اقدم عليه وأسرف فيه وإذا هو زعيم يلجأ اليه الفقراء والبائسون ويلتف حوله أصحاب الأطماع على اختلافهم وإذا هو قوة يجب أن تحسب لها الدولة حساباً وإذا هو يتقدم إلى مناصب الدولة فظفر في الانتخاب وإذا هو خصم لمجلس الشيوخ الروماني يدافعه ويجاهده يظهر نفسه مظهر الصديق للديموقراطية وانظر اليه قد فاز في جهاده فتولى حكم أقليم من الأقاليم الرومانية ولم يكد يصل إلى هذا الاقليم في فرنسا حتى ظهرت مقدرته السياسية والعسكرية ففتح فرنسا كلها وتعمق في المانيا وعبر البحر إلى بريطانيا العظمى واستفاد لنفسه من هذه الفتوح ثروة ضخمة استعان بها على كسب الفقراء والمصوتين في روما وإيطاليا كما أنه ضم إلى روما جزءاً من الأرض واسعاً خصباً وأتاح للحضارة اليونانية الرومانية أن تثبت في أقطار الغرب كما ثبتت في أقطار الشرق . فلما أتيح له كل هذا الفوز كثر خصومه ومنافسوه وعظمت أطماعه وإذا مجلس الشيوخ الروماني يريد أن يعزله من منصبه وإذا هو يمانع في هذا العزل وإذا الحرب قد شبت بينه وبين الجمهورية وإذا هو يقتحم ايطاليا فيظفر بروما وقد فر خصومه ينصبون له الحرب في الشرق وهنا ظهر أن قيصر خليفة الاسكندر حقاً ، أنظر اليه قد أخضع ايطاليا ثم طار

إلى اسبانيا فقضى فيها على الحزب المناصر لخصومه وأخضع في طريقه مدينة مرسيليا التي كانت مستعمرة يونانية مستقلة ، ثم أنظر اليه قد طار إلى الشرق فقضى على خصومه في موقعة فرسال ثم هو في مصر يقضي على المناصرين لخصومه ويجد من الوقت ما يمكنه من التدخل في أمور مصر ومن السعادة بالحياة مع ملكتها « كليوباترة » ، وهو الآن في آسيا يصلح من أمرها ويقضي على الاضطراب فيها ثم هو في أفريقيا الشمالية يبطش بخصومه بطشاً أخيراً ثم هو في اسبانيا يقضي على آخر مقاومة لخصومه ثم هو في مدينة روما يعلن ظفره وفوزه ويستمتع بنتائجها وقد تم له ما لم يتم للاسكندر من ملك العالم القديم المتحضر كله

(٤) وكان حظه خيراً من حظ الاسكندر فقد استطاع أن ينظم هذه الوحدة السياسية التي فشل الاسكندر في تنظيمها أو ان يضع الأساس لهذا التنظيم ، لم يكد يستقر في روما حتى محا السيادة الفعلية للنظام الجمهوري واستأثر بالسلطة كلها فجعل نفسه ديكتاتوراً طول حياته وجعل نفسه مقدساً وجعل لنفسه السلطة الدينية العليا ونصب نفسه زعيماً للضعفاء يحميهم ويحوطهم ولم يبق إلا أن يتخذ لقب الملك وكأنه كان يريد أن يتخذه لولا ان تعجله المؤتمرون فقتلوه في مجلس الشيوخ (مارس سنة ٤٤ قبل المسيح).

(٥) قتلوه وقد خيل اليهم انهم سيقضون على الطغيان ويردون إلى الشعب الروماني حريته ونظمه الجمهورية ولكن الحوادث دلت على أنهم كانوا مخطئين وعلى أن الشعب الروماني قد زهد في هذه

الحرية وسئم النظم الجمهورية وعلى أن العالم القديم كله كان قد نضج لتحقيق فكرة الاسكندر وايجاد هذه الوحدة السياسية العامة التي يشرف عليها سلطان قوي متين ، كان الاسكندر اذا صاحب الفكرة وكان قيصر منفذها ومهما يقل الفلاسفة في انتصار الحرية ومهما يكون حكم التاريخ على قيصر أو له فليس من شك ما في انه بعد الاسكندر أكبر قائد للفكر السياسي في العصر القديم ، هو الذي أسس الامبراطورية الرومانية ورسم نظامها وجمع العالم القديم كله تحت لواء واحد واخضعه لنظام سياسي واحد ولنظام قضائي واحد وأعده ليخضع لنظام ديني واحد أيضاً والعالم القديم مدين لقيصر بهذا كله وأوربا في القرون الوسطى مدينة لقيصر بحياتها السياسية وحسبك ان الامبراطورية الالمانية كانت ترى نفسها وارثة للامبراطورية الرومانية التي أسسها قيصر وكان رؤساؤها يسمون أنفسهم قياصرة بل أن أوربا مدينة بنظامها السياسي في العصر الحديث لقيصر فما كان لويس الرابع عشر في فرنسا ولا قياصرة الألمان الذين كانوا يخاصمونه الا متأثرين بالنظام القيصري بل لقد عصفت باوربا وبالعالم الحديث عاصفة الثورة الفرنسية فما هي إلا أعوام حتى أنتج النظام الجمهوري الفرنسي نفس ما أنتجه النظام الجمهوري الروماني وقام نابوليون بونابارت في باريس مقام يوليوس قيصر في روما

بين عصرين

(١)

ظن الذين ائتمروا بقيصر وقتلوه أنهم ائتمروا بما كان يمثله قيصر وقضوا عليه وظنوا أنهم قد وفقوا الى ما كانوا يطمعون فيه من رد امور الحكم الى الشعب ومحو السلطان الذي كان يحاول القضاء على الروح الديموقراطي . وما الذي يمنعهم ان يظنوا ذلك او يؤمنوا به وقد ائتمر المؤتمرون من قبلهم بالطغيان فأزالوه وانتدبوا لنصر الديموقراطية وحرية الشعوب فوفقوا اليه . ولكن كل شيء وقع بعد قيصر دلّ على ان هؤلاء المؤتمرين كانوا اصحاب خيال لا أصحاب تحقيق وعلى أنهم لم يأتمروا بالطغيان وانما ائتمروا بما كان باقياً من الديموقراطية ولم يقضوا على الجديد وانما قضوا على القديم . نعم ودل كل شيء وقع بعد قيصر على ان الذين كانوا قد ائتمروا من قبل بالطغاة والطغيان انما وفقوا الى الفوز لان نظام الطغيان كان قد أضعف نفسه وانتهى الى غايته ولانّ النظام الديمقراطي كان حديث العهد يكاد الناس يجهلونه ولكنهم مع ذلك يحبونه بل قل انهم كانوا يحبونه لانهم يجهلونه . وكان هذا النظام الديمقراطي يريد أن يعم ويسود فلا يحول بينه وبين ما يريد إلا هذا النظام العتيق نظام الطغيان واستئثار الافراد والاقليات بالامر . فلما أزيل هذا النظام العتيق خلت الطريق للجديد فظهر وانتصر وسيطر على العقول والعواطف وفروع الحياه العملية . أما في عصر

قيصر فقد كان الامر على عكس هذا . كان الناس قد سئموا الحرية أو قل كان الناس قد ضاقوا بهـذه الحرية ذرعاً لانهم عجزوا عن النهوض باعبائها فلم ينتفعوا بها ولم تنفع بهم . وكان النظام الديمقراطي القديم قد أصبح عتيقاً مملولاً لا سلطان له على النفوس ولا تأثير له في القلوب . وكان اختلاط الشعوب واشتداد الصلة فيما بينهـا قـد أثبت عجز النظام الديمقراطي القديم عن سيادة العالم وضبط أموره. وكان العالم في حاجة شديدة إلى من يسوده ويضبط أموره في حزم وعزم . وكان قيصر هذا السيد الحازم العازم الذي أتيح له أن يزيل انقاض القديم ليتيح للجديد أن يظهر ويظفر ويسود . لذلك لم يحسن المؤتمرون بقيصر الى الديمقراطية وانما أساءوا اليها وتعجلوا قضاء الله فيها . وأنت تعلم أن جسم قيصر لم يكد يدس في التراب حتى كان انصاره والمشيعون له أكثر من خصومه والساخطين عليه وحتى اضطر الذين ائتمروا به وقتلوه أن يفروا بديمقراطيتهم وحريتهم إلى مكان بعيد . وأنت تعلم أن الذين نهضوا بالامر بعد قيصر ما زالوا بهؤلاء المؤتمرين حتى ثأروا منهم لقيصر وانهم بعـد أن فرغوا من هؤلاء المؤتمرين اقتسموا على أنفسهم واضطروا إلى أنواع من الجهاد كلفت العالم رجالاً وأموالاً وجشمته خطوباً وأهوالاً وانتهت آخر الامر إلى حيث كان قيصر قد انتهى من تثبيت سلطان الفرد من ناحية وجمع الشرق والغرب تحت هـذا السلطان من ناحية أخرى واستقرار اغسطس حيث كان استقر خاله قيصر .

كل هذه الاحداث التي ألمح اليها تلميحا تدل دلالة واضحة قوية

على انه كان قد آن لقيادة الفكر أن تنتقل من طور الى طور ومن يد الى يد . وفي الحق أنك لا تكاد تنظر في التاريخ منذ ابتداء عصر القياصرة حتى تستيقن أن شيئين قد فشلا فشلاً مطلقاً وآن أن يقوم مقامهما شيئان آخران . فاما الشيئان اللذان فشلا فهما الديموقراطية والفلسفة . وأما الشيئان الذين قدرت لهما السيادة وكتب لهما الفوز فهما الاوتوقراطية والدين . وقد يكون من الحق والصواب أيضاً أن نقول أن كل شيء كان يدل في ذلك الوقت على ان الغرب قد فشل وعلى ان الشرق قد قدر له الفوز والانتصار ومع ذلك فقد كان الغرب منتصراً والشرق منهزماً . ألم تكن جيوش الرومان قد وطئت أقطار الشرق وأخذت تستعبده وتستذله ؟ ألم يكن أغسطس قد محا استقلال آخر البلاد الشرقية المستقلة وهي مصر ؟ كان الغرب منتصراً من الوجهة العسكرية ولكن الشرق كان ينتصر من الوجهة العقلية والشعورية . أتظن من المصادفة المطلقة أن تنشأ الامبراطورية في روما ويثبت سلطانها في نفس الوقت الذي يظهر فيه الدين المسيحي في الشرق وتبدأ الدعوة اليه ؟ وهل كان النظام الامبراطوري في الغرب الا نحواً من نظام الملك الشرقي ؟ لقد عرضنا أمامك في الفصول الماضية ألوان الحياة اليونانية الرومانية وصور الحكم في هذه الحياة فما رأيت فيما عرضنا عليك نظاماً أوتوقراطياً صحيحاً وانما رأيت حكماً مقيداً ينتقل بين الملكية والارستوقراطية والديموقراطية ولكنه مقيد دستوري

على كل حال . ورأيت فيما عرضنا عليك ان اليونان والرومان لم يعرفوا نظام الدول الضخمة والامبراطوريات الواسعة في أوربا وانما عرفوا في جميع أطوارهم نظام المدن الصغيرة المنفصلة المستقلة التي تأتلف من حين الى حين ولكن كما يأتلف الاحرار المتحالفون. ورأيت كيف فشل الاسكندر حين أراد أن يحقق النظام الاوتوقراطي ويكوّن من الشرق والغرب دولة تخضع لهذا النظام ؟ أما الآن فقد كان نظام الحكم المقيد قد فشل وكان نظام المدن المنفصلة قد فشل أيضاً وكان الاتصال بين الشرق والغرب قد قوي واشتدت أواصره وأخذت تظهر نتائجه فما الذي يمنع قياصرة الرومان أن يحكموا العالم كما كان يحكم الفراعنة في مصر والملوك في بلاد الفرس ؟ على ان انتصار الشرق على وضوحه وظهوره لم يكن كاملا موفوراً ولم يكن بدٌّ من أن يتم الجهاد وتنتهي التجربة الى أقصاها وينهار النظام الغربي القديم أمام النظام الشرقي الجديد

ولم يكن ذلك ميسوراً الا بعد أن يمضي وقت طويل يزداد فيه الاتصال بين الغرب والشرق شدة وقوة . ومهما يكن من شيء فقد فاز قيصر ومذهبه وانخذل النظام الجمهوري وأنصاره . ولم يكن فشل الفلسفة بأقل من فشل هذا النظام السياسي . وكيف لا تفشل وقد كثر الفلاسفة حتى تجاوزوا الاحصاء وكثرت مذاهبهم واشتد بينها الخلاف والتقاطع وعجزت الفلسفة ومذاهبها عن أن تحقق للناس ما كانوا يريدون أو بعض ما كانوا يريدون ؟ وأين هي آثار سقراط وافلاطون وارسطاليس في الحياة السياسية والاجتماعية ؟ ألم تحتفظ

المدن اليونانية التي كانت تدرس فيها هذه الفلسفة بنظمها القديمة التي اندفعت بها الى الفوضى والاضطراب وقادتها الى الذلة والخضوع؟ وهل تريد دليلاً على فشل الفلسفة من الوجهة النظرية الخالصة أكثر من هذا الخلاف بين الفلاسفة ومن اضطرار فريق منهم الى أن يستأنفوا الشك في كل شيء كما كان يشك السوفسطائية في القرن الخامس قبل المسيح ؟ واضطرار فريق آخرين الى أن ينصرف عن الفلسفة النظرية الى الفلسفة الخلقية ؟ واضطرار نفر من هؤلاء الى ان يزهدوا في اللذة ونفر آخرين الى أن يتهالكوا عليها؟ عجزت الفلسفة اذن عن ارضاء الحاجات السياسية للناس كما عجزت عن ارضاء العقل والشعور . فلم يكن بد من أن تنزل عن قيادة الفكر ولم يكن بد من أن يتولى الدين هذه القيادة . وأي دين هذا الذي يجب أن يخلف الفلسفة على قيادة الفكر ؟ ليس هو الدين الوثني القديم فقد جدت الفلسفة في هدم هذا الدين ووفقت الى تشكيك الناس فيه وقد عجز الغرب عن أن يستبدل بهذا الدين الوثني ديناً جديداً يستحدثه واضطرب الغرب بين هذه الوثنية المضحكة وبين إباحية هادمة لكل شيء مقوضة لكل سلطان . واذن فلم لا ينتشر في الغرب دين شرقي كما انتشرت في الغرب سياسية شرقية ؟

— ٢ —

كان هذا كله ظاهراً بيناً في العصر الذي ولي أيام قيصر ولكنه مع ذلك لم يتحقق الا بعد جهاد طويل عنيف . فقد ناضل القديم فأحسن النضال . لجأت المدن الجمهورية الى مجلس الشيوخ في

روما فناضلت القياصرة ما أتيح لها النضال ولجأت النظم الوثنية الى مجلس الشيوخ وقصور القياصرة فجاهدت المسيحية ما استطاعت الجهاد . ولكن القرن الثالث للمسيح لم يبلغ آخره حتى كان انتصار الشرق على الغرب تاماً شاملا . فأما آثار النظام الجمهوري فمحيت محواً . وأما القياصرة فقد أصبحوا فراعنة يعبدون في العالم كله على نحو ما كان يعبد الفراعنة في مصر . وأما الوثنية فقد كانت تنفق أقصى ما تملك من عنف لتحتفظ بالبقاء ولكن البقاء لم يكن قد قدر لها . واذا القرن الرابع قد انتصف واذا المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية كلها . واذا المسيحية تضطهد الوثنية بعد ان كانت الوثنية تضطهدها . واذا الشرق قد سيطر على الغرب بنظمه السياسية وميوله الدينية .

— ٣ —

وأنت تعفيني طبعاً من أن أتحدث اليك عن المسيح كما تحدثت اليك عن سقراط وافلاطون والاسكندر وقيصر . فليس المسيح في حاجة الى أن تدرس شخصيته وآثاره وقيادته للفكر في فصل موجز كهذا الفصل أو كتاب مجمل كهذا الكتاب

هناك شيء لا سبيل الى الشك فيه وهو ان المسيح قد قاد الفكر الانساني دهراً وقد لقيت قيادته للفكر صعاباً ازالتها وعقاباً ذللتها وأتيح لها أن تستأثر وحدها بالسلطان في الشرق والغرب حيناً . ولكن هذا الحين لم يتصل . وقد أخرج عما رسمته لنفسي ان حاولت ان أفصل الاسباب التي حالت بين الدين المسيحي وبين

الاحتفاظ بما كان قد وصل اليه من سيطرة على العالم القديم كله أو أكثره . وانما ألاحظ ان هذا الدين المسيحي هوجم في وقتين متقاربين من ناحيتين متباعدتين . وقد أتيح له الانتصار في احدى هاتين الناحيتين وقدر له الانقباض في الناحية الاخرى

لم يكد ينتصر في الغرب حتى أخذت القبائل الوثنية المتبربرة تهاجم العالم الروماني القديم . وقد استطاع الدين المسيحي أن ينتصر على هذه القبائل المهاجمة ويظلها بلوائه شيئاً فشيئاً حتى سلمت له أوربا المتحضرة . ولكنه بينما كان يسود في أوربا ويبسط لواءه على هؤلاء الوثنيين قليلا قليلا كانت حركة أخرى تحدث في آسيا . في هذه الصحراء العربية التي لم يكد يظلها القرن السابع للمسيح حتى كانت كلها مضطربة بظهور الاسلام . ولم يكد ينتصف عليها هذا القرن حتى كانت قد قذفت بأهلها في أقطار الارض المجاورة فاذا هم يفتحون ويمعنون في الفتح وينشرون دينهم الجديد . واذا المسيحية تنقبض أمامهم في الشرق كما ينقبض أمامهم النظام السياسي القيصري أيضاً . ولست في حاجة الى ان افصل لك الصراع بين الاسلام والمسيحية ولست في حاجة الى ان اذكر لك ان ظهور الاسلام مع انه قد احتفظ للدين بقيادة الفكر الانساني فقد قسم هذه القيادة بين دينين . فأما أحدهما فاستأثر بها في الشرق وهو الاسلام وأما الآخر فاستأثر بها في الغرب وهو المسيحية

— ٤ —

وقد استقر الدينان كل في موضعه مع انبساط وانقباض من

حين الى حين وتمت لها قيادة الفكر عصوراً لا يكاد ينازعها فيها منازع . ومن غريب الأمر أنها خضعا لاطوار متشابهة في الشرق والغرب . كلاهما لم يستطع أن يستغني عما ترك اليونان والرومان من فلسفة وأدب وتشريع . وكلاهما استغل هذه التركة اليونانية الرومانية وأساغها راضياً مرة وكارهاً مرة أخرى . باسماً حيناً وعابساً حيناً آخر . كلاهما آوى فلسفة اليونان وتشريع الرومان واستعان بهما في كلامه وتشريعه . وكلاهما تجهم لفلسفة اليونان وتشريع الرومان حين أحس منهما خطراً قليلا أو كثيراً . وكلاهما أحدث في العالم حضارة مزدهرة ما استعان بالفلسفة اليونانيـة والتشريع الروماني مبتسماً متلطفاً محتاطاً . وكلاهما أحدث في العالم خطوباً شداداً وجشمه أهوالا عظاماً حين اندفع الجهل بأهله الى اساءة الاستعانة بفلسفة اليونان وتشريع الرومان

تبين أمر الفلاسفة الذين ظهروا في الشرق والغرب في ظل الاسلام والمسيحية . وتبين حظوظهم المختلفة من نعمة وبؤس ومن سعادة وشقاء . وتبين أسباب هذا كله فأنت مضطر إلى أن تلاحظ أن هذه الأسباب متشابهة وأن اختلفت أطوارها وبيئاتها وأنهـا راجعة كلها أو أكثرها إلى فهم الناس للدين والفلسفة أكثر من رجوعها إلى الدين والفلسفة في نفسهما . راجعة إلى مقدار ما كان للناس من علم يعظم معه نصيبهم من حرية الرأي أو جهل يضعفـه معه نصيبهم من هذه الحرية .

ومن غريب الأمر أن ما يسميه الناس اضطهاداً للفلسـفة

في ظل الاسلام أو المسيحية لم يحدث الا من قوم كان جهلهم بالاسلام والمسيحية أكثر من علمهم بهما . وكان تعصبهم للمنافع والاطماع أشد من تعصبهم للدين . ماذا تقول ؟ بل من غريب الأمر أن اضطهاد الفلسفة هذا لم يحدث في ظل الاسلام والمسيحية وحدهما بل حدث في ظل الوثنية أيضاً ولنفس الاسباب التي أحدثته عند المسلمين والمسيحيين وهي الجهل من ناحية والمطامع والمنافع من ناحية أخرى . ولقد يكون من الحق على الذين يذكرون اضطهاد ابن رشد عند المسلمين وتحريق من حرقوا عند المسيحيين الا ينسوا مقتل سقراط وهرب ارسطاطاليس عند الوثنيين . وألا ينسوا أن هؤلاء الفلاسفة جميعاً انما نكبوا في أيام فتنة ومحنة وجهل وانحطاط في السياسة والأخلاق

— ٥ —

استقرت قيادة الفكر للاسلام والمسيحية طوال القرون الوسطى ولكن الله كان قد أراد أن تسترد الفلسفة والسياسة قيادة الفكر مرة أخرى وأن يكره الاسلام والمسيحية على أن يدعا قيادة الفكر بعد ما استأثرا بها هذه القرون الطوال

لست في حاجة إلى أن أفصل لك تاريخ النهضة الأوربية الحديثة ولا ما كان من استكشاف الكتب الفلسفية والآثار الأدبية والفنية التي تركها اليونان والرومان فأنت تعرف هذا مثل ما أعرفه ولكني أحب أن تفكر معي قليلا في هذه الآثار اليونانية الرومانية التي كان كل شيء في القرن الأول للمسيح يدل على أنها

قد فشلت وأصبحت لا تصلح قواماً للحياة العامة . ما بالها في القرن الخامس عشر والسادس عشر قد أخذت تفتن الناس عن أنفسهم ودياناتهم وعاداتهم وأخلاقهم وميولهم ؟ وما بالها قد أخذت تستأثر بقلوب الناس حتى أنهم ليعرضون أنفسهم في سبيلها لمثل ما كان يتعرض له المسيحيون في محاربتها من سجن وموت ومن ألوان التنكيل والتمثيل ؟ بل ما بالها قد أخذت تثمر في هذا العصر الحديث ما لم تستطع أن تثمره في العصر القديم ؟ لقد كانت الفلسفة اليونانية قد انتهت إلى الشك في العصر القديم وعجزت عن اصلاح النظام السياسي والاجتماعي حتى سئمها الناس وزهدوا فيها . ولكن الناس لم يكادوا يدرسونها في العصر الحديث حتى فتحت أمامهم أبواب الأمل والعمل ومكنتهم من استحداث العلم وتغيير نظم الحياة وانتهت بهم الى ما هم فيه الآن من رقي . ما بالها فشلت قديماً وفازت حديثاً ؟ قل في تعليل ذلك ما شئت فقد تصيب وقد تخطىء ولكنك مصيب من غير شك ان لاحظت معي أن هؤلاء الفلاسفة من اليونان كانوا أرقى من الأجيال التي عاشوا فيها وكانوا قد سبقوا هذه الأجيال إلى حيث لم تستطع أن تدركهم . ولم يكن بد من أن تنتظر فلسفتهم قروناً طوالاً حتى يتم نضوج العقل الانساني فيحسن اساغتها واستثمارها . وهذا هو الذي كان . لم تكد تظهر هذه الفلسفة وتشيع بين المحدثين حتى آتت ثمرها طيباً منتجاً . واذا هي توجه نفراً من الفلاسفة والساسة تولوا قيادة الفكر حتى انتهوا به إلى الثورة الفرنسية ثم إلى ما نحن فيه الآن

العصر الحديث

— ١ —

أما في هذا العصر فيجب أن يتغير مذهبنا في البحث لان موضوع هذا البحث نفسه قد تغير ولأن الظروف التي تحيط بالعقل الانساني قد تغيرت تغيراً عظيماً وظهرت فروق كثيرة بينها وبين تلك الظروف التي كانت تحيط بهذا العقل أثناء العصور القديمة والقرون الوسطى.

كانت قيادة الفكر للشعر أو للفلسفة أو للسياسة أو للدين. وكان من الغريب أو من النادر أن تشترك هذه الاشياء اشتراكاً ظاهراً في توجيه شعب من الشعوب أو عصر من العصور . وانما كانت حياة الأمم المتحضرة في هذه العصور تصطبغ صبغة ظاهرة جلية هي الصبغة الادبية أو الفلسفية أو السياسية أو الدينية . أما في هذا العصر الحديث فأنت تضيع وقتك وقوتك ان حاولت أن تجد لشعب من الشعوب أو قرن من القرون صبغة واحدة تستأثر به وتشتمل على جميع أطرافه . وانما أنت مضطر حين تبحث عن قيادة الفكر أثناء العصر الحديث الى أن توزعها بين أمور مختلفة لان ظروف الحياة نفسها قد وزعتها بين هذه الامور فلم تستأثر الفلسفة ولم يستأثر الشعر ولم تستأثر السياسة ولم يستأثر الدين بقيادة الفكر في فصل من فصول هذه القصص التي يكونها العصر الحديث وانما اشتركت هذه الامور كلها في قيادة الفكر وان شئت التحقيق والدنو من الاصابة فقل ان هذه الامور كلها قد تنافست واشتد بينها

النزاع في قيادة الفكر فقهر بعضها بعضاً وأخذ كل منها بنصيب من توجيه العقل الانساني والتأثير في حياة الشعوب

وآية ذلك انك تنظر في أي وقت من أوقات هذا العصر الحديث فاذا أنت أمام فلسفة تجاهد لتسيطر على الحياة وسياسة تجاهد لتصوغ الحياة كما تحب ودين يناضل ليحتفظ بمكانته وسلطانه وأدب يجد ليكون له التفوق والفوز ولكل واحد من هذه الاشياء زعماؤه وممثلوه والداعون اليه والذائدون عنه حتى في الأوقات التي يخيل اليك فيها ان أمراً من هذه الأمور قد ظهر تفوقه واستأثر بالفوز والغلبة. فقد يخيل اليك ان عصر الثورة الفرنسية مثلاً كان عصر سياسة ليس غير ولكن فكر قليلا وأتقن درس هذا العصر تجده عصر سياسة وعصر حرب وعصر علم وعصر فلسفة وعصر تشريع بل عصر دين أيضاً. وتجد كل هذه الامور تزدحم وتتنافس وتستبق الى قيادة الفكر تريد أن تستأثر بها وتسيطر عليها

— ٢ —

وقد يكون من الحق أن نلتمس العلة لهذه الظاهرة الجديدة التي وزعت قيادة الفكر بين طائفة من المؤثرات ولم تقصرها على مؤثر واحد كما كان الأمر في العصور الاولى

ولعلنا لا نتكلف كثيراً من العناء في التماس العلة لهذه الظاهرة فقد نلاحظ ان المطبعة اخترعت في هذا العصر وانها أثرت فيه آثاراً لاسبيل الى تقديرها فأذاعت كتب القدماء والمحدثين ومضت في هذه الاذاعة لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية ولا تستطيع

القوانين والنظم المختلفة أن تقيدها . فبينما كانت تذيع في هذا البلد الكتب الدينية كانت تذيع في ذلك البلد الكتب الفلسفية وكانت تذيع في بلد آخر كتباً أدبية وعلمية وفنية

وبينما كان القانون يضيق عليها في هذا البلد فلا يبيح لها اذاعة كل شيء كان القانون يرخص لها في ذلك البلد فيتركها تذيع ماتشاء وكان الكاتب أو العالم أو الفيلسوف لايظفر بانتشار كتبه في العصور الاولى الا اذا ظفر بشيء من الشهرة وبعد الصيت يرغب الناس في آثاره ولم يكن الظفر بهذه الشهرة سهلا ولا يسيراً . أما الآن فقد يسرت المطبعة على كل ذي رأي أن يذيع رأيه ويناضل عنه وعلى كل باحث أن ينشر ثمرات بحثه بين الناس ولم تكد تظهر المطبعة وتأخذ فيما أخذت فيه من النشر والاذاعة حتى ظهرت آثار ذلك قوية في حياة العصر الجديد فكثرت الآراء واختلفت أو قل ظهرت كثرة الآراء واختلافها واستطاعت أن تجاهد وتختصم وتتنافس في قوة وسرعة لم يكن للناس بهما عهد من قبل

ومن هنا استطاعت كل هذه الامور التي ذكرناها آنفاً وهي الفلسفة والأدب والسياسة والدين والعلم أن تظهر وتلتمس حقها في الوجود وتظفر بهذا الحق . ومن هنا لم يكن العصر الحديث مصطبغاً بصبغة واحدة ظاهرة كالعصور التي سبقته ومن هنا لم يكن من الحق ولا من الصواب أن تبحث في هذا العصر عن قيادة واحدة للفكر أو عن نوع واحد من قادة الفكر . انما أنت مضطر الى أن تبحث عن قيادات للفكر وعن أنواع من قادة الفكر

وخذ القرن السابع عشر مثلا والتمس فيه المؤثر في قيادة الفكر فلن تستطيع أن تقول إنه كان عصر فلسفة خالصة أو عصر سياسة خالصة أو عصر أدب خالص أو عصر دين خالص. وانما كان عصر هذه الأشياء جميعاً . بل هناك ظاهرة أخرى ليست أقل من هذه الظاهرة خطراً وهي تمثل الاختلاف العنيف بين العصر الحديث والعصور التي سبقته ولا سيما العصر القديم

فقد كانت قيادة الفكر في العصور الاولى لأمر من هذه الأمور التي أشرنا اليها وكانت في الوقت نفسه لأمة من الأمم أو شعب من الشعوب

كانت لليونان ثم كانت للرومان ثم كانت للعرب ثم عادت الى أوربا فكانت للكنيسة أي لمدينة روما أو قل كانت قيادة الفكر لمدينة من المدن — لأثينا وللاسكندرية ولروما ولمكة وللمدينة ولبغداد وللقاهرة ولقرطبة ثم لروما

أما في العصر الحديث فقد تغير هذا كله وكما ان قيادة الفكر لم تكن الى الدين أو الفلسفة أو الادب أو السياسة وانما كانت لها كلها فهي لم تكن لامة بعينها ولا لمدينة بعينها وانما كانت للامم المتحضرة جميعاً وللمدن الظاهرة في هذه الامم وذلك كله أثر من آثار المطبعة

وخذ هذا القرن السابع عشر وابحث عن الفلسفة فيه . فقد كانت في العصور الاولى يونانية أو اسكندرية أو عربية . أما الآن فلن تكون فرنسية ولا انجليزية ولا ألمانية وانما لكل أمة من

هـذه الامم فلسفتها والأمر كذلك في الادب وهو كذلك في السياسة وهو كذلك في ألفن والعلم ونوشك أن نقول انه كذلك في الدين أيضاً .

للفرنسيين ديكارت وللانجليز با كون . للفرنسيين شعراؤهم الممثلون وللانجليز شكسبير . للفرنسيين لويس الرابع عشر وريشليو وللانجليز كرومويل . ونستطيع أن نذكر في الفلسفة والادب والسياسة والدين والعلم والفن أسماء ايطالية وألمانية وهولندية

وعلى هذا النحو اشتد توزع قيادة الفكر بين المؤثرات المختلفة من جهة وبين الأمم والمدن من جهة أخرى وأخذ يزداد شدة كلما كثرت المطابع وكثرت آثارها المنشورة حتى انتهى الأمر في القرن الثامن عشر الى شيء يشبه الفوضى بل الى الفوضى . وما أظن انني أقول جديداً ان زعمت ان المطبعة من أهم المؤثرات في الثورة الفرنسية التي لم يفق منها العالم بعد

— ٣ —

ولم يقف الأمر بالمطبعة عند نشر الكتب والرسائل وما اليها وعند استحداث ما استحدثت من الآثار في القرن السادس عشر والسابع عشر ولكن المطبعة استتبعت شيئاً آخر غير الكتب والرسائل . استتبعت الصحف اليومية والدورية كما يقولون

وما أظن انك في حاجة الى أن أدلك على ان ظهور الصحف السياسية والعلمية والادبية قد قوى توزع قيادة الفكر وانتهى به الى حد غريب فقد كان العلماء والكتاب والفلاسفة والساسة

ينشئون كتبهم وينشرونها فيستغرق ذلك منهم الأشهر والأعوام ويستتبع ذلك بطء فيما يكون بينهم من النزاع والنضال والاستباق الى قيادة الفكر . أما بعد ان ظهرت الصحف فالنزاع يومي أو أسبوعي أو شهري . هو عنيف وهو سريع وهو متصل . وهو مؤثر في توزيع قيادة الفكر بمقدار ما يشتد ويسرع ويستمر

والنتيجة الظاهرة لهذا كله هو اننا كنا نجد في العصور الاولى رجلا يقود شعباً وشعباً يقود العالم . أما الآن فقلما يظفر الرجل بقيادة مدينة أو فرقة في مدينة وهو ان ظفر بذلك فانما يظفر به الى حد وعلى مشقة وجهد الا أن يكون فذاً من أفذاذ التاريخ حقاً أو يكون في أمة جاهلة لم تظفر المطبعة فيها بهذا السلطان العظيم ولم يكثر فيها القراء والكاتبون

أحب أن تلتمس قيادة الفكر لا أقول في العالم ولا أقول في أوربا وأميركا وانما أقول في فرنسا وحدها الآن لأي نوع من أنواع المؤثرات هي : ألفلسفة ؟ ولأي فلسفة ؟ ألفلسفة الوضعيين أم لاصحاب مابعد الطبيعة ؟ ولأي فريق من هؤلاء ؟ أم هي للدين؟ ولأي دين ؟ أللكاثوليكية أم للانجيلية ؟ أم هي للادب ؟ ولأي مذهب من مذاهب الادب ؟ فقد يكون احصاء هذه المدارس عسيراً . أم هي للسياسة ؟ ولأي لون من ألوان السياسة ؟ للجمهورية المعتدلة أم للديمقراطية المتطرفة ؟ أم للملكية ؟ أم للامبراطورية ؟ أم للشيوعية ؟ أم للاشتراكية ؟

وتستطيع أن تسأل هذا السؤال بالقياس الى كل بلد من بلاد أوربا الراقية

— ٤ —

وكأن المطبعة وما استتبعت من النشر والاذاعة والصحف وما استتبعت من الالحاح في النشر والاذاعة لم تكن تكفي لتوزيع قيادة الفكر بين المؤثرات المختلفة والامم المختلفة والفرق المختلفة . فاستحدث هذا العصر الجديد شيئاً آخر أو أشياء أخرى يخيل الينا في ظاهر الأمر أنها تعين على توحيد الكلمة وجمع الرأي وقصر قيادة الفكر على مؤثر بعينه أو أمة بعينها . ولكنها في حقيقة الأمر تجمع الناس وتقرب ما بينهم من المسافات المادية والمعنوية وهي في الوقت نفسه تمعن في توزيع قيادة الفكر امعاناً غريباً

هذه الاشياء هي ما اتفقنا على تسميته أسباب المواصلات ألغيت المسافات أو كادت تلغى . لا نقول بين الامم والشعوب بل نقول بين القارات الى أن يأتي اليوم الذي تقول فيه الأجيال المقبلة بين الافلاك والكواكب وأصبحنا بفضل البخار والكهرباء وبفضل التلغراف والتليفون نستطيع أن نعرف في مصر آخر النهار ما يقع في أقصى الغرب أو أقصى الشرق أو أقصى الشمال والجنوب في أوله . وأصبح الفيلسوف أو الأديب أو العالم لا يكاد يخرج كتابه للناس في بلده الذي يعيش فيه حتى ينتشر هذا الكتاب في أطراف الأرض فاذا هو يدرس ويلخص ويترجم ويفسر ويناقش في البلاد

الأجنبية واذا هو يحدث آثاراً مختلفة في البلاد والبيئات المختلفة واذا آثاره تمعن في التغلغل وتتعمق في حياة الشعوب ـ كل ذلك ولم يمض على ظهور كتابه عام أو بعض عام واذا اصداء هذا الكتاب المختلفة تتجاوب في اقطار الأرض وترمد إلى حيث ظهر الكتاب. وأصبح الرجل من رجال السياسة لا يكاد يكتب فصلاً أو يلقي خطبة أو يفضي الى أحد بحديث حتى يتناول البرق ما قال أو ما كتب فينشره في جميع أطراف الأرض ولم يمض على قوله أو كتابته ساعات. ولعلك تلاحظ أن الصلة بيننا وبين المدن الكبرى في أوربا وأميركا قد ألغت المسافة بالفعل فيما يتصل بالسياسة. فنحن نقرأ ما تكتبه الصحف الانجليزية مثلاً في اليوم الذي تكتبه فيه والانجليز يقرأون ما نكتب وما نقول كذلك. بل تجاوز الأمر هذا الحد وأصبح الخطباء السياسيون في الأحداث الكبرى يلقون خطبهم لا تقول في المئات والآلاف من الناس بل تقول في مئات الآلاف

وظاهر هذا كله أن قد اشتدت الصلة بين الجماعات فقرب بعضها من بعض واستطاع بعضها أن يفهم بعضاً. وكان من المعقول أن يكون هذا كله سبباً في توحيد قيادة الفكر وقصرها على شعب من الشعوب أو مدينة من المدن أو لون من ألوان المفكرين. ولكن هذا ليس من الحق في شيء وانما الحق انا لا نعرف عصراً من العصور توزعت فيه قيادة الفكر كما توزعت في هذا العصر

ومصدر ذلك أن اصطناع المطبعة والصحف والبرق والتليفون

وأدوات البخار والكهرباء ليس مقصوراً على شعب من الشعوب ولا على مدينة من المدن ولا على فرقة من الفرق المفكرة وانما هو شائع بين أمم الأرض وهذه الأمم كلها تجاهد وتناضل لتحيا وتسود والأفراد في هذه الأمم يناضلون ويجاهدون ليحيوا ويسودوا وهم يصطنعون هذه الأدوات ويستعينون بها على ما يريدون من سيادة وقيادة للفكر

والأفراد يتنافسون والشعوب تتنافس والنتيجة الظاهرة لهذا التنافس أن قيادة الفكر موزعة في الشعوب بين الأفراد النابهين وهي موزعة في العالم بين الشعوب النابهة .

واذن فكل شيء يدل على أنه لم يبق أمل في أن نحصر قيادة الفكر في مؤثر بعينه ولا في شعب بعينه ولا في فرقة بعينها من فرق المفكرين وانما السبيل هو أن نبحث عن قيادة الفكر في كل مظهر من مظاهر الحياة العقلية على حدة بل أن نوزع هذا البحث على الأمم النابهة والشعوب الممتازة

— ٥ —

ومع هذا كله فقد أراد الله أن يخضع النوع الانساني لظاهرة لم يجد إلى الآن سبيلاً إلى أن يخلص منها وليس هو في حاجة إلى أن يخلص منها والخير كل الخير هو أن يستمر خضوعه لها وتأثره بها

هذه الظاهرة هي ظاهرة النبوغ التي تكره الأمم والشعوب والانسانية كلها أحياناً على أن تعترف بفرد من الأفراد وتذعن

لقوته العقلية أو الفنية أو السياسية رغم ما فيها من قوى وكفايات ومن جهاد بين هذه القوى والكفايات

وليس هنا موضع البحث عن النبوغ والتماس أصوله والمؤثرات فيه وانما يكفي أن نلاحظ أن النبوغ ظاهرة اجتماعية عرفها أكثر العصور ولم يستطع تغير الظروف واستحالة أطوار الحياة أن يمحوها أو يزيلها أو يضع من قدرها

فقد تستطيع المطبعة أن تنشر وتذيع وتسرف في النشر والاذاعة وقد يستطيع الناس أن يجاهدوا ويناضلوا ويستحدثوا الآثار المختلفة في ألوان الحياة وفروعها ولكن شيئاً من هذا لن يستطيع أن يمحو نبوغ ديكارت وأنه قد صبغ الفلسفة الحديثة صبغة خاصة ممتازة ووجهها وجهة خاصة مكنتها من الانتاج والأثمار .

ولن يستطيع شيء من هذا أن يمحو ما كان لروسو من أثر في حياة الشعوب وفي سياسة العصر الحديث . ولن يستطيع شيء من هذا أن يمحو ما كان لفيكتور هوجو من أثر في الشعر الفرنسى والأدب الفرنسي الحديث بوجه عام

النبوغ اذن ظاهرة اجتماعية واقعة نشهدها من حين الى حين الأفراد النابغون مهما تعترضهم العقاب ومهما يكتنفهم من الظروف لهم من قيادة الفكر والسيطرة عليه حظ يلائم نصيبهم من النبوغ

فاذا قلنا أن قيادة الفكر في القرن السابع عشر لم تكن إلى الفلسفة وحدها فنحن مضطرون الى أن نقول أن قيادة الفكر الفلسفي في هذا العصر كانت إلى ديكارت . واذا قلنا أن قيادة

الفكر في هذا العصر لم تكن للسياسة وحدها فنحن مضطرون إلى أن نقول أن قيادة الفكر السياسي في هذا العصر كانت لريشيليو. وكرومويل ولويس الرابع عشر

وقل مثل ذلك في الأدب والفن والعلم والدين . وكل ما بين هذا العصر والعصور السابقة من الفروق هو أن قيادة الفكر قد تنوعت وتوزعت في العصر الحديث فأصبحت مضطراً إلى أن تقسم البحث عنها إلى فصول وتلتمسها عند كثير من الناس في كثير من الامم بعد أن كنت تستطيع أن تجمع البحث عنها في فصل واحد وتلتمسها عند رجل واحد في شعب واحد أو مدينة واحدة

وبين يدينا كتاب « لاميل فاجيه » حاول فيه أن يدرك قادة الفكر في الاخلاق والسياسة وحدهما وفي فرنسا وحدها وفي القرن التاسع عشر وحده فلم يستطع أن يكتب أقل من ثلاثة أسفار ضخام

— ٦ —

وكم كنت أحب أن أمضي في هذا الحديث فأدرس النابهين من قادة الفكر المحدثين كما درست النابهين من قادة الفكر القدماء. ولكنك ترى معي أن هذا السفر قد طال وانتهى إلى غاية يحسن الانتهاء اليها والوقوف عندها وأن درس المحدثين من قادة الفكر على اختلاف ما تفوقوا فيه من فروع حياة العقل والشعور يحتاج لا أقول الى سفر آخر بل إلى أسفار

وأنا أتمنى (وما أكثر ما يتمنى الانسان) أن يتيح الله لي من

سعة الوقت وفراغ البال والنشاط لمثل هذا البحث ما يمكنني من المضي فيه حتى أتمه على النحو الذي قدمته في سفر أو أسفار ولكن علم هذا كله عند الله

فأنا أقدم اليك هذا السفر الذي قدوت عليه ولست أطمع في أن يبلغ منك مكان الرضا وانما أرجو أن يقع منك موقع النفع في غير مشقة ولا املال

وأظنك تأذن لي في أن أعتذر اليك مما قد تجد في هـذا الـكتاب من تفاوت واختلاف. فقد كنت أريد أن أفرغ لكتابته حيناً ولـكن ظروف الحياة أرادت غير هذا فـكتبت بعض فصوله في بريطانيا وكتبت بعض فصوله الأخرى في باريس وأتممته في القاهرة وكنت في بعض هذه الأوقات راضياً مطمئناً مستريحاً إلى الحياة والأحياء فارغ البال الا مما يلذ ويسر وكنت في بعضها الآخر ساخطاً أو كالساخط مكدوداً موزع القوة بين أعمال مختلفة من الدرس والـكتابة وغير الدرس والـكتابة . ولعلي لا أتجاوز الحق ان قلت أني قد اختلست هذا الـكتاب اختلاساً . فاختلست بعضه من أوقات راحتي في فرنسا .واختلست بعضه الآخر من أوقات عنائي في مصر . وأنا أتمنى لهذا الـكتاب ألا يختلس قراؤه قراءته كما اختلس كاتبه كتابته وأن يتيح الله لقرائه ما لم يتح لي من الراحة والنشاط وفراغ البال